

المحور الثالث

المدن العواصم

تقرير عن أشغال ورشة المدن العواصم

ذ . جمال الحيمر

كلية الآداب مكناس

عُرضت في ورشة المدن العواصم خمس مداخلات همت مدن فاس ومراكش وتطوان وجدة ومكناس، استهل أشغالها الأستاذ محمد فتحة بعرض حول موضوع " الزاوية في فاس رهانا للتحكم في المدينة أو إعادة تملكها"، تلاه عرض الأستاذ رابطة الدين الذي عَنُونَهُ بـ "مراكش عاصمة المرابطين : ملاحظات وتساؤلات"، ثم عرض الأستاذ محمد بن عبود بصيغة " تطوان عاصمة متوسطية"، واختارت الأستاذ مارية دادى كعنوان لمداخلتها " مدينة وجدة: العاصمة المهمشة"، واختتم الأستاذ عبد المالك ناصري أعمال الورشة بعرض تحت عنوان "مدينة مكناس: من الحصن العسكري في العصر الوسيط إلى عاصمة للدولة في العصر الحديث"، وكان من المقرر أن تندرج مداخله الأستاذ عبد الحميد احساين بعنوان " مدينة الرباط العاصمة زمن الحماية" ضمن هذه الورشة غير أن إكراها تنظيميا اقتضى برمجتها في ورشة المدينة والتحول المعاصرة.

قدم لأشغال هذه الورشة منسقها الأستاذ عثمان المنصوري ببعض الملاحظات ركزت في مجملها على الأفكار والإشكالات التي وردت في ورقة الورشة من قبيل التساؤل عن العوامل التي أفضت إلى انتقال العاصمة إلى مدينة ثانية، وما دواعي ودلالات التآرجح وعدم الاستقرار أحيانا على عاصمة واحدة، وهل بالمستطاع إنجاز مقاربات مقارنة بين العاصمة المغربية ونظيرتها المشرقية والأوربية.

لقد انتظمت عروض هذه الورشة ضمن محاور تناولت نماذج متباينة في فترات مختلفة من تاريخ المغرب. مركزة على البحث في العوامل التي أهلت هذه المدن لتصبح عواصم للدولة المغربية مع إبراز خصوصية كل نموذج، بيد أنه وجب استثناء مداخله الأستاذ محمد فتحة التي نحت منحى مغايرا بتعرضها لعناصر وقضايا تتصل بورشة الولاية والصلااح وورشة النخب، حيث انصب الحديث على مسألة توجيه الحياة الدينية من قبل الدولة المرينية التي كانت قد أحكمت سلطتها في

البلاد، وهو توجيه - يقول الباحث - أملاه هاجس المشروعية واستهدف التحكم في النخب المحلية. وارتباطا بما سبق يتساءل حول ما إذا كانت هذه النخب تعكس وعيا حضاريا في وجه الآلة الاحتكارية للدولة. وهل يمتد هذا الواقع السوسولوجي ليشمل مدنا أخرى (سبتة - سلا - آسفي...).

من هذا المنظور استعرض الباحث في عرضه القيم عدة معطيات ووقف عند بعض الأحداث التي تؤرخ للمواجهة بين النخبة الدينية والسلطة السياسية المرينية مبينا كيف كانت هذه المواجهة تنتهي بحصول توافق مفيد للطرفين يحول دون استمرار التوتر. ومستخلصا أن الدولة في العصر الوسيط امتلكت دراية حيوية لتدبير المجتمع، وأن جعلتها لم تفتقر لقنوات تتكفل بضبط الحكم ممثلة أساسا في قنوات ومسالك العلم والصلاح، والتي فصل القول في طبيعتها وأدوارها وأهدافها ورهاناتها. وإذا جاز أن نوجز مضمون المداخلة نشير إلى أن الباحث أبرز أن مدينة فاس قد شهدت ما بين إنشاء الزاوية المتوكلية من قبل السلطان أبي عنان المريني والزاوية الإدريسية في العهد الوطاسي محاولات ومشاريع تكشف عن نزوع الدولة المرينية نحو استقطاب النخبة الحضرية واستتباعها للانخراط في المشروع المريني، وكسر شوكة من كان ما يزال يعارض ويتصدى لتحاولات الدولة.

لقد أبرزت مداخلة الأستاذ فتحة أهمية مكانة ودور العامل الديني في ترجمة " سلطة المدينة " وتكريسها ليس في مواجهة المخزن المريني وإنما في انتزاع مكاسب وتحقيق مواقع لنخبها تبيح لها إسماع صوتها وتجعل منها قوة مؤثرة وفاعلة في القرارات المهمة للبلاد.

وجاءت العروض الموالية متكاملة وممثلة لنماذج متباينة في الأهمية والإشعاع من تحارب المدن العواصم. ففيما يخص مدينة مراكش أوضح الأستاذ رابطة الدين أن الأمر يتعلق بالانتقال من تجربة عاصمة الإمارة إلى عاصمة المخزن المركزي، وما يرتبط بهذا الانتقال من ضوابط ومعايير لاختيار العاصمة. وفي هذا الصدد يتساءل الباحث عن مدى استجابة اختيار موقع مراكش لمقتضيات وظيفة العاصمة، وهو السؤال الذي شكل قاسما مشتركا لعروض هذه الورشة تنوعت أجوبته بتنوع المقاربات، فالأستاذ رابطة الدين في جوابه يرى أن موقع مدينة مراكش ارتبط بمشكل استراتيجي ثلاثي الأبعاد: أولهما البعد الأمني إذ الموقع غير آمن لافتقاره إلى حصانة طبيعية

وحصانة بشرية وحصانة اصطناعية. وثانيهما عامل قلة الأمطار بالنظر لسيادة المناخ الجاف الصحراوي وهو ما استوجب إدخال تقنية الخطارات لحل مشكل الماء، وثالثهما هو البعد عن الخزان البشري للمخزن المرباطي صاحب العاصمة. وجوابا على نفس السؤال أكدت الأستاذة مارية داداي بخصوص نموذج مدينة وجدة أن هذه الأخيرة كانت تفتقد للمقومات الأساسية لكي تكون مدينة عاصمة، في المقابل ركز الأستاذ محمد بن عبود على مزايا الموقع الجغرافي لمدينة تطوان مبرزا كيف تم تشييدها على جبل دراسة في موقع مطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وفي نفس المنحى أوضح الأستاذ عبد المالك ناصري أن اختيار مدينة مكناس عاصمة للبلاد في عهد السلطان المولى إسماعيل قد خضع لمجموعة من المعايير تتمثل في مزايا الموقع الجغرافي للمدينة وأهميته الاستراتيجية، فضلا عن توسطها سهل سايس ووفرة الموارد المائية.

وعن أوجه تباين النماذج المعروضة في هذه الورشة نشير إلى ما خلص إليه عرض الأستاذ رابطة الدين من كون إن إحدى الخاصيات المميزة لمراكش العاصمة المرباطية كمنتوج سياسي جديد هي سعة المجال الجغرافي لسيادته. ومن ثمة فإن شروط اختيار العاصمة التي اعتمدها تجارب الإمارات السابقة من قبل لم تعد تفي بمتطلبات الدولة المركزية التي تحتاج إلى عاصمة بخصائص ومؤهلات جديدة توفر لها إمكانية ضبط وإحكام مجال السيادة، وتأمين الاستقرار السياسي به، وسهولة التواصل مع كل جهاته.

وعن نموذج مدينة تطوان أكد الباحث محمد بن عبود على ما تنفرد به من خصوصية في مسارها التمديني على مستويات متعددة، كما أوضح أن تاريخ المدينة تغير مساره وتحول مآله من قرن إلى آخر. وفي هذا السياق أصبحت تطوان عاصمة للدولة - المدينة المستقلة في غياب دولة مغربية مركزية قوية كما حصل في القرن السادس عشر، وتحولت إلى عاصمة إقليمية خلال مراحل أخرى كما حدث في القرن الثامن عشر، وتحولت في بداية القرن العشرين إلى عاصمة المنطقة الخليفية، منطقة الحماية الإسبانية.

وعكس الدينامية التي اتسمت بها أدوار مدينة تطوان، فإن مدينة وجدة كان نصيبها التهميش حسبما أبرزته الأستاذة مارية داداي، ذلك أنه بعد تشييد زيري بن عطية المغراوي مدينة وجدة سنة 384هـ/994م اتخذ لها كل المقومات الضرورية لكي تكون قاعدته ودار ملكه، ويسكنها

بأهله وحشمه، بيد أن تطور الأوضاع السياسية التي عاشتها الدولة المغراوية سارت في اتجاه يعوق تحقيق هذا المسعى على نحو ما أوضحته الباحثة بنوع من التفصيل الموثق لتخلص إلى أن هذه الأوضاع حالت دون أن تكون وجدة فعلا عاصمة للإمارة المغراوية بكل المقاييس منذ تأسيسها إلى نهاية هذه الإمارة.

وإذا كان التهميش مآل مدينة وجدة، فإن مدينة مكناس كما أبرز ذلك الأستاذ عبدالمالك ناصري قد توفرت لها جملة عوامل وساهمت عدة معطيات، طبيعية واستراتيجية وسياسية في تأهيلها لتضطلع بنموذج العاصمة السلطانية بعد أن تدرجت في المراتب خلال الفترات السابقة عن اختيارها عاصمة للمخزن العلوي، إذ بين الباحث أن تطور مسارها التمدني انتقل من مجموعة من القرى أو الخوثر في العهد الإدريسي إلى حصن صغير سمي تاكرات مع حلول العصر المرابطي إلى كرسي وزارة في العصر المريني ليتحول مصيرها إلى عاصمة الدولة في عهد السلطان مولاي إسماعيل.

وتعززت أشغال هذه الورشة بنقاش مثمر أثرت خلاله بعض التساؤلات والملاحظات المتصلة بموضوع الورشة حيث تم التأكيد على تكامل العروض وتباين طرق التناول وتنوع المقاربات. كما تمت الإشارة إلى أن من أهداف هذه الورشة هو إعادة تعريف العاصمة في التجربة التاريخية المغربية، وهو هدف لم يُستوف حقه من التحليل، كما لوحظ ضرورة تنسيب مراكز كعاصمة في العصر المرابطي، وإعادة التفكير في بعض الألفاظ التي ترد في النصوص المتداولة كدار الملك وقواعد الملك تجنبا لاستخلاص تصورات قد لا تكون مطابقة للواقع سيما إذا علمنا أن الأطراف لم تكن دائما بعيدة عن المركز. كما نبه البعض إلى ضرورة التحفظ في استعمال بعض المفاهيم كالقول بدولة عصرية إبان العصر الوسيط، وبالمثل فإن بعض الصيغ التي وردت في كتب المناقب لا تسمح بتعميمها. أما بخصوص مسألة الدولة - المدينة فلا بد في هذا الصدد من استحضار تجارب مماثلة في التجربة التاريخية المغربية على أساس أن يتم البحث في سياقات النشأة وطبيعة الخصوصيات المحلية ونوعية العلاقات التي ربطت دويلات المدن بالدولة المركزية.

واقترحت بعض التدخلات تغيير عناوين بعض العروض، ومثال على ذلك العرض الخاص بمدينة مكناس إذ من الأنسب عوض الحديث عن الانتقال من الحصن إلى العاصمة أن تُستعمل

صيغة الانتقال من الحاضرة إلى الحضرة السلطانية، وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة وجدة إذ بدل الحديث عن تهميش المدينة كان من الأفيد أن تبني المقاربة على أساس التساؤل حول العوامل التي حالت دون أن تلعب مدينة وجدة الأدوار التي كان يُتوقع أن تضطلع بها. وفي نفس السياق لاحظ بعض المتدخلين أن قضية التهميش غير واردة لأن استعمال هذه الصيغة يوحي وكأن الأمر يتعلق بفعل إرادي وما هو لا يركيه الواقع، ومن جهة أخرى فإن الظرفية المعنية اتسمت بتكوين أحلاف قبلية تطلعت إلى إنشاء إمارات (بني يفرن - مغاوة ...)، فزيري بن عطية هو بمثابة زعيم إمارة قبلية بنى لنفسه حصنا عرف بوجدة لا يجوز أن نصنفه في إطار عاصمة.

ولم يفت البعض الوقوف عند مسألة المصادر وتجنب أي تناول يفيد ما يمكن اعتباره محاكمة لهذه المصادر، بينما سجل البعض إغفال المكون الديمغرافي بالنظر لما يكتسبه من أهمية معيارية في الحديث عن عوامل اختيار المدن العواصم.

ويبقى سؤال يفرض نفسه في ختام هذا التقرير مفاده هو مدى تغطية العروض - بصرف النظر عن تفاوت مستويات الرصد والتحليل - لكل القضايا والإشكالات التي وردت في الورقة التقديمية، وفي تقديرنا نرى أنه إذا كانت بعض العروض قد قاربت بعض هذه القضايا، فإن أخرى لم تحظ باهتمام أي عرض سواء بصفة مباشرة أو ضمنية أو عرضية، أسوق منها على سبيل المثال إمكانية عقد مقارنات بين العاصمة المغربية ومثيلاتها في المشرق وأوربا، وهي مقارنة تستلفت الانتباه، ولعل من أبرز عناصر هذه المقارنة ووجوب البحث في دلالاتها هو تحول مراكز العاصمة عبر الحقب وتعاقب السلالات الحاكمة في التجربة التاريخية المغربية مقابل استمرارية نفس المدينة كعاصمة - إلا في ما ندر - في التجربة المشرقية الأوروبية.

فاس بين بناء الزاوية المتوكلية واكتشاف قبر إدريس الثاني

ذ. محمد فتحة

كلية الآداب - الرباط

يعتبر بناء الزاوية المتوكلية بفاس من قبل السلطان المريني أبي عنان واكتشاف قبر الإمام إدريس الثاني حدثان بارزان في التاريخ السياسي والاجتماعي والروحي لمدينة فاس، لأنهما يؤشران معا على مخاض طويل الأمد تندرج أهدافه في إطار الرغبة في التحكم في مجريات الأمور، على الأقل فيما يتعلق بإرادة توجيه الحياة الدينية والتحكم في النخب المحلية من قبل الدولة المرينية التي لم يعد أحد يجادل وقتها في إحكامها لقبضتها على البلاد. لكن أولى الأمر كانوا يعرفون أن التغلب وحده لا يكفي لممارسة حكم سلس، وأنهم كانوا في حاجة دائمة إلى إرساء حكمهم على أسس من المشروعية الدينية، وهذا ما كان ليتأتى لهم دون مد جسور نحو الوسط الديني. من جهة أخرى هل يمكننا الحديث عن "مجتمع حضري" بفاس وعن "نخب حضرية" في المغرب في نهاية العصر الوسيط؟ أليس من المجازفة اعتبار أن هناك قوى اجتماعية معينة كان بإمكانها أن تلعب دورا كابحا للتصورات الشمولية للحكم السائدة آنذاك لدى الحكام المرينيين؟ وهل تعكس هذه النخب وعيا حضريا، أي ذلك الإحساس بالانتماء إلى هوية مدنية معينة وما يترتب عن ذلك من شعور بوحدة مصالح مختلف الشرائح المكونة للمدينة ورغبة في الذود عن مصالحها في وجه الآلة الاحتكارية للدولة. وإذا جاز القول بذلك، فهل يمتد هذا الواقع السوسيولوجي إلى باقي المدن الكبرى مثل سبتة ومراكش وسلا وأسفي وغيرها، أم أن الأمر يتوقف عند حدود هذه المدينة وحدها؟ وكيفما كان الجواب، فإنه لا يرتبط بالأسس المادية للإنتاج بالمدينة وظاهرها ولا بثرواتها الاقتصادية مهما كبرت، فلا سبيل إلى اتباع هذا النهج المؤكد بالنسبة للظاهرة الحضرية شمال حوض المتوسط.

والراجح أن كثافة الظاهرة العلمية والصوفية بفاس تفسر وحدها تلك الريادة التي تميزت بها المدينة عن مثيلاتها.

منذ استقرار المرينيين بفاس واتخاذهم لها كحاضرة للملك نشأت بينهم وبين النخبة الحضرية "أشياخ المدينة"؟ علاقات متوترة يجسدها المثالان التاليان:

- ثورة المدينة سنة 647هـ/1250م التي انتهت بخضوع فاس وتصفية زعمائها ومصادرة أملاكهم وهو ما عبرت عنه بعض المصادر المعاصرة بأن أهل فاس "ذلوا ولم يكن فيهم من يرفع رأسا بعدها إلى اليوم"¹.

- المباراة التي رعتها الدولة بين فقهاء فاس وفقهاء السلطان في موضوع صحة وجهة قبلية مدرسة الصفارين التي أتم السلطان أبو يوسف يعقوب بناءها سنة 675هـ/1277م، فوجد من أكد أنها تنصرف عن قبلية القرويين التي بنيت في الأصل على سمت القبلة التي بناها الإمام إدريس الثاني، وأفتى آخرون بانحراف بعض مساجد فاس عن بعضها البعض وأن العبرة في نهاية الأمر هي التوجه نحو مكة لا عين الكعبة؛ لتبقى الأمور على حالها. ومعلوم أن موضوع القبلة هذا أثير منذ القدم واستمر بعد ذلك، وهو في نهاية الأمر نزاع حول مشروعية الحاكم وتسفيه مقصود لإمامته²، لاحظ فيه للمؤسسة العلمية لأنه ليس في وسعها مواجهة السلطان ولا منازعته، لكن ولي الأمر لم يكن بوسعها أيضا تجاهل ما تضرره تلك المواقف، لأن استمراره كحاكم في حاجة دائمة إلى تركية العنصر الديني بمكونيه العلمي والصوفي. وفي انفتاح السلطان على هذا الوسط إتاحة كثير من الفرص للمدينة كي تبسط مشاكلها

¹ - ابن أبي زرع، روض القرطاس...، الرباط، 1973، ص. 294.

² - انظر في هذا الصدد سابقة تعود إلى بداية الموحدين، فمن المعلوم أنهم بعد استيلائهم على مراكش امتنعوا عن دخولها بدعوى "تشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة التي لا عوج فيها ولا تحريف لأمة محمد عليه السلام والتشريق والتحريف لغيرها من اليهود وغيرهم، فقال الفقهاء تطهر وتسكنوها فقالوا وما تطهيرها؟ فقال الفقهاء تخدم جوامعها وتبني جوامع أخرى، فهدمت جوامعها لأجل تشريقها وتحريفها عن القبلة وإمالتها إلى المشرق..." أبو بكر بن علي الصنهاجي البيهقي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، 1971، ص. 66.

بخصوص تجاوزات المخزن المحلي والتعسف في الجبايات وقضايا الغصب وتقدم النصيحة للسلطان وتذكره بمسؤولياته نحو الرعية¹. وكان من شأن حصول هذا التوافق بين الطرفين أن يسمح في الغالب بامتصاص التوترات وتفادي الأزمات. لكن هل ما تؤكد به بعض المصادر عن اقتسام المهام والسلط داخل المدينة وقع فعلا؟ وهل هو سمة لهذا التوافق المذكور؟ وهل هذا الشعار الذي عبر عنه السلطان أبو الحسن محيلا على أجداده، قد وجد طريقه إلى الوجود بالنظر إلى ما ينسب إليه "أوصى جدنا عبد الحق (رضه) بوصية التزمناها وهي أن ثلاثة من الولاة لا مدخل للرعية فيهم مع السلطنة وهم صاحب القسبة وصاحب الشرطة والوالي وثلاثة المرجع فيهم للرعية وهم إمام الصلاة والخطبة والقاضي والمحتسب"². لا شك أن اقتسام الاختصاصات والصلاحيات بقي عبارة عن شعار وما كان ليجد طريقه إلى التنفيذ إلا في حدود ضيقة جدا وفي ظل ضمانات تتصل بولاء المؤهلين لهذه الخطط، لأن هذه الأخيرة أحيطت دائما برعاية الأسرة الحاكمة نظرا لخطورتها، فقاضي الحاضرة وخطيب القرويين والمحتسب شخصيات كانت الدولة تسهر على اختيارهم من بين أسر اشتهرت بخدمتها للدولة، فقد اختاروا شاعر دولتهم ومؤرخها عبد العزيز الملزوزي محتسبا بفاس، واختير خطيب جامع القرويين وإمامه محمد بن عباد بسبب اعتداله ونصحه، علاوة على أن ملوك هذه الدولة ورثوا عن سابقيهم بعض الأسر النابذة في مجالات مختلفة تتصل بشؤون الحكم والقضاء والفتوى، واستقبلوا بعض الأسر من الغرب الإسلامي وكلفوها ببعض الخطط³.

¹ - محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6هـ/12 م إلى القرن 9هـ/15م، أطروحة مرقونة، كلية الآداب عين الشق الدار البيضاء، 1996 ص. 130 وما يليها

² - محمد ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغورا، الجزائر، 1982 ص. 123

³ - محمد فتحة، نفسه، منشورات كلية الآداب عين الشق الدار البيضاء، 1999، ص. 232

نخلص في نهاية هذا التقديم إلى أن الدولة في العصر الوسيط كانت جهازا راكم دراية جيدة بكيفية تدبير شؤون الرعية وأن ثقافتها في مجال الحكم كانت تستند إلى خبرة حقيقية يمتلكها من يعول عليه في تقديم المشورة والنصح من خدامهم، كما أن ما ينسب إلى بعضهم من تأليف في الآداب السلطانية أو مقولات متصلة بطرق الحكم، تعبر عن سعة اطلاع وتكوين في مجال العلوم الشرعية وأمور الحكم والحرب، ولذلك فإن جعبتهم لم تخل من احتياطات لتجنب التوترات الناجمة عن ممارسة الحكم؛ فقد حاسبوا عمالهم بصرامة وكان عقاب بعضهم يتم أمام الملأ¹. واجتهدت الدولة في تطبيق الشعارات الدينية التي نادى بها خلال مراحل سعيها للسلطة وفي رسائلها الرسمية وفي مجهودها في البناء والتشييد ومن خلال ما ينسبه المؤرخون للخلفاء والسلاطين من أقوال وأفعال؛ لكن فرص الإخلال بما ذكر لم تنعدم، فقد كان الغلو في جمع الكلف والمغارم وشدة العمال على الرعية وانتشار الغضب واستغلال الجاه، من أسباب الاصطدام مع الرعية ومع الأطراف التي كانت تعتبر أن من واجبها التعبير عن هموم الجمهور والتصدي لكافة التجاوزات. وقد احتفظت بعض المصادر التاريخية غير المباشرة بما يفيد بكثير من جوانب الخلل في ممارسة الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكوم، سواء من خلال كثير من الفتاوى الصريحة التي تناولت تلك التجاوزات من زاوية "شرعية" ومن خلال سعي شيوخ التصوف إلى إزالة المظالم والدعوة إلى الضرب على يد المعتدين والغاصبين. ومعلوم أن موقف الأولياء من السلاطين وأموالهم كان يصل أحيانا إلى حد مقاطعتهم ورفض استقبالهم، وهو ما كان يضر بصورة هؤلاء وهم الراغبون دائما في الظهور بمظهر الحاكم المتشبه بالمشروعية ويعصف بطموحاتهم التي لم تكن غاياتها الدعائية لتخفى على هؤلاء الشيوخ.

تدفعنا مقتضيات هذه الدراسة المتعلقة بدلالات تأسيس الزاوية المتوكلية والضريح الإدريسي إلى إغفال مكون أساس من مكونات تلك السلطة المعنوية المؤهلة شرعيا وتاريخيا

¹ - ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، تحقيق جماعة من الأساتذة، ص. 158 و 198-199 و 225

للقيام بردود فعل إزاء أنواع التعسف والمنكرات وهي فئة العلماء، لنقتصر على الأولياء لأن تأسيس تينك الزاويتين يدخل في إطار استراتيجية الدولة المرينية التي عملت على محاصرة طاقة المواجهة والاعتراض التي كان يعبر عنها الجسم الصوفي أو طرف منه على الأقل. لكن قبل الدخول في صلب الموضوع ما هي مظهرات علاقة الدولة بالمتصوفة؟

موضوع التصوف ليس جديدا وقد تم الاهتمام به من قبل عدد كبير من الباحثين بحيث لم يخل بحث في هذا الموضوع وبالنسبة لكل الفترات، من رغبة في الإحاطة بعناصر العلاقة الممكنة بين الحاكم وتيار التصوف. وسعيا منا إلى التذكير بوجوه التعارض بين توجهات الدولة واختياراتها وتدخلات المتصوفة التي انتهت إليها جل الأبحاث المذكورة، فإنه يمكن القول بإيجاز بأن التصوف من خلال شيوخه وطوائفه كان يمثل ملاذا للمستضعفين والمغلوبين في الأوقات العصيبة، وأن الشيوخ كانوا يتدخلون لدى أجهزة المخزن المحلي لمنع مغرم أو لقضاء حاجة أو لثني سلطان عن التمادي في قرارات مجحفة في حق الرعية أو ضارة بها، كما هو الشأن في الحروب التوسعية وفي الحصارات الكبرى. ودون التوقف عند جميع تلك الأدوار، فمن المؤكد أن هؤلاء المشايخ اكتسبوا مع الوقت الاحترام والمهابة في كل الأوساط، بما فيها أوساط الحاكمين، طالما بقي هؤلاء محسنين الظن بهم ومقتنعين بأنهم لا يشكلون خطرا عليهم. لكن تزايد اعتقاد الناس في بركاتهم وبحث الكثيرين على التقرب منهم جعلهم يتقاسمون مع السلاطين ولاء الرعية، وهو ما كان يزعج أولي الأمر الذين تربوا على الاعتقاد بأنهم وحدهم المؤهلون للرئاسة الدينية والدنيوية فإذا بهم يجدون المتصوفة يقومون بما هو من أوجب واجبات السلطان حينما يواجهون هذا الأخير بتقصيره في ضمان الأمن والاستقرار للرعية وتأمينها ضد مختلف أصناف التجاوزات، فحينما يعجز السلطان عن ذلك وتضطره إكراهات شتى إلى العسف بالناس ويجرده الولي من هذا الدور فإن مشروعيته كحاكم تكون قد عقلت. وحتى يسترد سلطانه فإنه يكون مضطرا إلى إزالة التهديد الذي يشكله الأولياء، وإلى محاولة احتواء الظاهرة أو التظاهر بذلك على الأقل، بالإنصات إلى

مطالب القوم والاستجابة لها بحسب طبيعة المطلب وإمكانات الحاكم، ولهذا فكثيرا ما مد السلاطين الأولياء المعتدلين الذين لم يرفضوا التعامل معهم بالمال والمؤن مساعدة لهم على القيام بواجباتهم نحو من يقصد أبوابهم، كما تنازلوا لبعضهم عن جباية مكان معين مساعدة لهم على الاضطلاع بأدوارهم. ومعلوم أن هذه العلاقة بالشيوخ والطوائف والزوايا كانت دائما تقدر بمدى نجاعة هذه الأطراف في بيئاتها ونيابتها عن المخزن في ضمان الاستقرار بها.

وإذا كان المرابطون والموحدون قد تعاملوا من قبل مع الوسط الصوفي بالمبرة أحيانا وبالقسوة والقمع أحيانا أخرى، فإن المرينيين لم يخرجوا عن هذه القاعدة وتعاملوا معه بأساليب متباينة كذلك، كانت تخضع لتقديرات الدولة ومصالحها أساسا، فقد تلي حاجات المتصوفة وقد تسيء معاملتهم رغما عما ينسب إليهم من قدرات خارقة كثيرا ما أدخلت الرهبة والرعب في نفوس خصومهم، ذلك أن الدولة حينما كانت تلجأ إلى اعتقال شيوخهم أو نفيهم فإنها لم تكن تكثر في الواقع لما كان يشاع حولهم من قدرات خارقة، وفي هذا السياق فإن تجربة الدولة المرينية تبدو أصيلة بالمقارنة مع غيرهم، إذ تعكس سلوك دولة فهمت الرهانات الإيديولوجية المتصلة بالحكم وعملت على توظيف الدين وفق مصالح الأسرة الحاكمة وليس كمكون أساس للإمامة الكبرى، ومن هذا المنطلق، يمكننا فهم السياقات التي أملت عناصر السياسة الدينية لهذه الدولة والتي اعتنت الاسطغرافية المعاصرة بإبراز ملامحها الكبرى بشكل تدريجي منذ مرحلة الحماية. وفيما يخص تعامل هذه الدولة مع تيار التصوف، فقد انتسبت هذه الأسرة في بداية أمرها إلى هذا الوسط وسجل مؤرخوها ما كان لجد الأسرة عبد الحق من كرامات وبركات ومحبة في العلماء والصلحاء، وحينما توفي بنيت له زاوية ومسجد بتافراست وخصصت لها أراض زراعية لتوفير حاجة زوارها من مأكول وفراش.¹ وبالرغم من ذلك الاختيار الذي يجعلهم في مركز التصوف، استمر المرينيون في الانفتاح على شيوخ الوقت واقتفوا أثر من سبقهم في العناية بالصلحاء دوغما تطلع إلى

¹ - الذخيرة السنية، الرباط 1972، ص. 34.

الاختصاص بريادة هذا الوسط بالرغم من خيبة أمل بعض سلاطينهم من مساعي بعض الشيوخ¹. ويجب انتظار عهد السلطان أبي الحسن لرصد ملامح التغيير في المقاربة، فقد كان أول من دشن مسلسل بناء زوايا من نوع خاص كانت الدولة راعية لها وتوفر لها الأموال وتعين المقدمين عليها من أجل تسييرها وتدير مواردها والإشراف على روادها من الفقراء؛ ومن هذه الزوايا تلك التي بناها السلطان المذكور بباب القورجة بمكناس، ثم عمم ابنه أبو عنان هذه التجربة بباقي المدن في فاس وسبتة وسلا وتلمسان.

أعدت هذه الزوايا حسب ما يظهر من وصف الزاوية المتوكلية بفاس، بغرض إيواء الزوار والمسافرين والغرباء وأصحاب السياحات. وبالرجوع إلى ابن الحاج النميري وهو شاهد عيان حضر تدشين الزاوية المتوكلية بفاس وزاوية النساك بسلا، نلاحظ أن الأمر يتعلق بمؤسسات رسمية للتصوف توجد بها عدة مرافق ضرورية لعيش المكلفين بشؤون الزاوية والفقراء وأبناء السبيل، ومنها دار الإمام وهو مقدم الزاوية وشيخ الصوفية بها ودار المؤذن ودار ناظر الأعباس المخصصة لها علاوة على سكنى الخدم الرقيق المشتغلين بداخلها. كانت هذه الزاوية تؤوي أيضا عددا من الفقراء المرتين المقيمين بداخلها بشكل دائم² إلى جانب شيخ الفقراء المعين من قبل السلطان وهو محمد بن عبد الله بن أبي مدين المنتمي لأسرة معروفة بخدمة الدولة. وبهمنا بعد الإحاطة بهذه الإفادات المصدرة، الوقوف عند خلفيات بناء هذه المؤسسات التي تشبه في ظروفها وملابساتها بناء المدارس المرينية التي استهدفت مراقبة رواج المعرفة وتوجيه النخب العلمية واستقطبت كبار العلماء وجعلتهم ينخرطون في ذلك المشروع العلمي والسياسي المريني. ولا شك أن إنجازات بهذا الحجم والتكلفة كانت تعبر عن رغبة واضحة في منافسة الزوايا المستقلة وجلب المريدين وتوفير "خدمة روحانية" تشرف عليها الدولة ولا يترتب عنها أي سوء بالنسبة للمخزن.

¹ - البادسي، المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أحمد أعراب، الرباط، 1982، ص. 116.

² - ابن الحاج النميري، فيض العباب... نشر محمد بنشقرون، الرباط، 1984، ص. 47-54.

وإذا كانت التجربة قد بينت أن المرينيين نجحوا في الغالب في استمالة العلماء وضمّان ولائهم وجعلوهم لا ييخلون على السلاطين بالنصح والدعاء بصلاح الحال والحث على طاعة السلطان ولوجار، تجنباً لوقوع الفتنة على عادة المالكية. فإن أوساط المتصوفة عرفت بالمقابل، مع بعض الاستثناءات طبعاً، بزهدا في أمور الدنيا وبجهرها بمواقف صريحة إزاء التجاوزات والأمور المنكرة، وبسعيها إلى السلاطين وإلى العمال من أجل دعوتهم إلى التصدي لها.

ليس من الصدفة أن تظهر في هذا الوقت بالذات ثلاثة قضايا تلتقي كلها في اتجاه التبرم من المشيخة:

- سؤال واستفتاء علماء الغرب الإسلامي في موضوع ضرورة السلوك في التصوف على يد شيخ من الشيوخ.

- ظهور كتاب السلسل العذب للحضرمي وهو أول كتاب مناقب يهدى إلى أحد السلاطين، وكانت غايته الإشادة من خلال تراجم أربعين صالحاً بتصوف معتدل يقرن الصلاح بالعلم ويغفل مسألة المشيخة التي كانت تؤرق أولي الأمر.

- بناء الزوايا الرسمية وتخصيص المال اللازم لاستمرارها وضمّان جاذبيتها وفي هذا الصدد فإن ابن الحاج النميري الذي ندين له بمعلوماتنا عن زاوية النساك والزاوية المتوكلية، عرج بدوره على مسألة المشيخة في التصوف وذكر أنه شهد من جملة فقراء هذه الزاوية الأخيرة، شخصاً منعزلاً عن الناس فأعجب بحاله وطلب منه بعد أن استأنس به أن يعرفه بشيخه الذي سلك على يديه واستند في حسن التربية إليه فأعرض عنه ولم يجبه واكتفى منه بالدعاء.

ويبدو لنا أن هذه المسائل الثلاث تضمّر إجماعات بأن الشيخ المري، وهؤلاء الشيوخ الذين جمعوا المريدين حولهم وربوهم تربية وفق الإرث الروحي لطوائفهم، لا ضرورة لهم لأن

بعضهم اعتبر نموذجاً اقتدي به الناس، ولأنهم جردوا السلطان من ولاء الجمهور ومن إمامة غير مستحقة، ولأنهم فوق هذا وذاك جعلوا نصب أعينهم التصدي لتجاوزات الحكام ودونوا نماذج من "انتصاراتهم" على السلاطين في كتبهم التي بينت صمودهم ونجاعة كراماتهم في ردع كل ذي سلطان.

يبدو لنا أن انزعاج الدولة من تيار التصوف أدى بها في نهاية الأمر إلى العمل في اتجاهات مختلفة كان آخرها تجربة الزوايا الرسمية الذكورة. والملاحظ أن تلك الزوايا بنيت في الحواضر الكبرى وفي مدن كانت تعتبر أرضاً خصبة للتصوف، فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان من سعي الدولة إلى استتباع الوسط العلمي، تبين لنا أن حيزاً مهماً من السياسة الدينية للدولة المرينية وبخلاف من سبقهم¹، كان متمحوراً حول المدينة. ومعنى ما تقدم أن النخبة الحضرية وأعيان المدن المقصودة بتلك السياسة هم من أسمتهم المصادر بأشياخ المدينة، ونذكرهم هنا بصفاتهم الدينية والروحية أي العلماء وشيوخ المتصوفة ومن يسير في فلكهم.

كل من درس المدينة الأوروبية في العصر الوسيط المتأخر وركز على التجارب الحضرية التي مهدت للانتقال من النظام الفيوذالي إلى النظام الرأسمالي إلا ويقف على الدور المتميز الذي لعبه التجار والطوائف الحرفية الكبرى في انتزاع مكاسب سياسية ومؤسسية طبعَت المدينة بشكل إيجابي، مقابل دعمها للأنظمة الملكية المنبثقة عن النظام الفيوذالي. وقد أدى هذا التوافق في المدى البعيد إلى تكريس هذين النظامين وتعايشهما على الرغم من الطابع الاستبدادي الذي ميز الأنظمة الملكية آنذاك. وفي المقابل فإن الحاضرة الإدارية وبأبوابها المدن²، كانت تعكس دينامية اجتماعية مختلفة تماماً، فالنظام السياسي بالمغرب بإطاراته

¹ - بالمقارنة مع المؤرخين الذين استهدفوا سياستهم الوقائية من الوسط الديني، بمكونه العلمي والصوفي، كل المجال المغاربي بمدنه وأريافه، فإن المرينيين ركزوا على المدن بشكل أكبر واكتفوا بتفويض تنظيم وتأطير الأرياف إلى بعض الطوائف الموالية كالمجربين والامغارين. أما ما ذكره محمد القبلي عن انتشار التصوف الشعبي في الأرياف فلربما ميز ظرفية القرن الخامس عشر التي هيمنت عليها الطريقة الجزولية وترتبت عنها النتائج المعروفة.

² - باستثناء مدينة سبتة التي كان لها وضع خاص، قبل أن يدخلها أبو سعيد الثاني ويعين من تولى أمرها، فإن الحقبة العزفية تمثل مرحلة "استقلال" عن الدولة وانبثاق أسر حضرية تقرر العلم بالتجارة للإشراف على المدينة وتباشر أمر الحكم فيها بالشورى لدرجة

الشرعية، أطر التحول السياسي بفكرة الإصلاح الديني المتمحورة غالبا حول المصلح القرني أو المهدي المنتظر، وكلاهما يكرس مبدأ الإمامة المستبدة التي تعمل على تفادي معارضة من داخل المنظومة يمكن أن تعصف بها؛ وحتى التجارب الرأسمالية التي تعكس مصالح من نمط آخر مثل شركة الإخوة المقرري وآل العزفي وباقي التجار المتعاملين مع بلاد السودان، فإنها كانت في مهب الريح دون إمكانية تراكم فعلي، لأنها مهددة باستمرار بالمنافسة السلطانية¹ أو بالمصادرة اعتبارا لحاجة السلطان أو بمناسبة انتقال الحكم من عصبية إلى أخرى.

كان أفق التجار وكبار الحرفيين في فاس وفي غيرها من المدن مغلقا لأسباب كثيرة كانت تحول دون حصول التراكم المنشود، والنخب الوحيدة التي بقيت متشبثة بمواقعها ومكتسباتها التقليدية هي النخب الدينية، أما المنتجون فبالرغم من كونهم أصحاب مصالح مادية يفترض أن يزودوا عنها مهما كانت أهميتها، فإنهم لم يكونوا يتوفرون على وعي فتوي أو طبقي من شأنه أن يوحد خطواتهم، لأن عهودا طويلة من الخضوع لسلطة المخزن وأدواته المحلية من عمال ومحتسبين جعلتهم يمارسون أنشطتهم خانعين ومتقبلين لبنية حكم مهيكلة وفق شروط الاستبداد، وباختصار فإننا بصدد بنية فكرية وإنتاجية ما قبل رأسمالية، وما دام الأمر كذلك فكيف يمكننا التعامل مع اكتشاف الضريح الإدريسي؟.

بداية تجدر الإشارة إلى أن أبحاث محمد القبلي في هذا الصدد تعتبر رائدة ولم تفقد تأويلاته لهذه المسألة بعد بريقها وإغراءها، وأن خلاصتنا بالنسبة لهذا الموضوع تختلف بعض الشيء عما انتهى إليه. في سنة 841هـ / 1437م تم اكتشاف قبر إدريس الثاني بمسجد الشرفاء "صدفة" بحضور الحاجب أبي زكرياء والشريف أبي الحسن علي بن محمد بن عمران

أن البعض اعتبر النخبة الحاكمة فيها نوعا من "الباتريشيا" في إحالة على مرحلة مهددة للأنظمة التمثيلية بالمدن الأوروبية انظر A.Laroui ; Histoire du Maghreb, Paris 1968, p.192 . Yves Barel, La ville médiévale PUG 1977 ; p. 77et ss, انظر أيضا في شان التاريخ السياسي لمدينة سبتة محمد بن تاويت، تاريخ سبتة، الدار البيضاء 1982

¹ - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، سبق ذكره، ص. 258 انظر قوله في إحالة صريحة على ما هو معروف من مشاركة السلاطين وعماهم في التجارة المتوسطية آنذاك، وهي معطيات أكدها أيضا البحث التاريخي المعاصر.

والعالم أبي عبد الله محمد العبدوسي مفتي فاس وشخصيات سيكون لها شأن في ثورة فاس وهم الشيخ زروق والمفتي القوري وعبد الله الورياغلي¹، وقد اختلفت المصادر في شأن توطين قبر الأمير إدريس إذ تجعله الروايات الأقدم كالبكري وابن أبي زرع بجوار قبر أبيه في ويلي، وتذكر أخرى ومن بينها الجزنائي مؤلف كتاب جنى زهرة الآس أنه كان في فاس. ومعلوم أن السياق الذي أتى فيه هذا الاكتشاف يتميز من الناحية السياسية بضعف المرينيين وباستمرار المد البرتغالي بعد استيلائهم على سبتة وإشراف الوطاسيين على أمور الدولة من موقع الحجابة. وقد ترتب عن هذه الأوضاع تقلص المجال الذي يغطيه نفوذ الدولة فعلا، ونحوض شيوخ التصوف بالاستنفار للجهاد، وسوء أحوال الشرفاء بسبب ضعف موارد الدولة.

أشارت المصادر في معرض حديثها عن أبي زكرياء الوطاسي الى أن عهده تميز بنصرة الدين نظرا لما اتصف به من شدة الإيمان وكثرة التواضع واهتمام بأمور دولته وعطف على الرعية والعدل في معاملتها. وأن عنايته بالجهاد قربته من الوسط الديني وجعلت هذا الأخير في خدمته وهو ما أهله في نهاية الأمر ليكون السيد الفعلي للبلاد².

لم تحل إنجازات الحاجب الوطاسي وانتصاره على البرتغال بطنجة ثم انفتاحه على أشراف فاس دون انقسام المغرب إلى نصفين، نصف جنوبي توقف زعماؤه عن مد الحاجب بإمداداتهم بشكل متزامن مع توقف دعم شيوخ التصوف من أهل الجنوب، ثم نصف شمالي هو مملكة فاس، كان الحاجب يتحكم فيه بشكل متقطع وغير دائم. والراجح أن بناء الضريح الإدريسي كان بهدف استقطاب شرفاء فاس لصالحه لما كان يراوده من تطلع للاستبداد بالحكم دونما حاجة إلى تبرير سيادته بوجود سلطان محبوب؛ لكن هذه "التطلعات كانت تصطدم بعقبة شرعية ما كان له أن يتخطاها دون خلق جسور مع النخبة

¹ - H. Beck, l'image d'Idris II, ses descendants de Fas et la politique sharifienne des sultans merinides (1258-1465) Leiden, 1989, p.233- 234

² - أوغست كور، دولة بني وطاس، ترجمة محمد فنحة، منشورات كلية الآداب، الرباط 2010، ص. 37

الفاسية وعلى رأسها الشرفاء الجوطيون والصقليون والعراقيون ثم العلماء الذين لم يتوقف قط نظرهم بعين التجلّة لهؤلاء الأشراف. ومن الواضح أن الحاجب الوطاسي كان يستلهم سياسة بني مرين في تعاملهم مع شرفاء المغرب في القرن الرابع عشر الميلادي، غير أن مقتله في مواجهة عرب أنكاد في 1458 وعدم تمكن خلفه علي بن يوسف الوطاسي من ضبط أحوال البلاد، لم يكونا يسمحان ببلورة المشروع الوطاسي خلال هذه المرحلة على الأقل. ومن المؤكد أن المرحلة الوطاسية خلال القرن الخامس عشر كانت حافلة بالإشارات إلى تطلع الشرفاء لإعادة موقعهم الاعتباري، خصوصا بعد ما حصل من انتكاس في علاقتهم بالدولة المرينية. ويبرز ذلك من كثرة التآليف المتزامنة حول الشرفاء ومنها "نصح ملوك الإسلام" لابن السكاك و"بجعة الناظرين" لابن عبد العظيم الأزموري و"تقييد يشتمل على أجداد مولانا إدريس الأكبر وأولاد ولده إدريس الأصغر" لأبي الحسن علي بن فتحون؛ والاعتماد على قيمة الشرف في الاستعداد للمطالبة بالسلطة عن طريق ادعاء المهدوية كما فعل محمد بن سليمان الجزولي بعد انتهاء إقامته في مقر الزاوية الأمغارية بتيط؛ وبناء الضريح الإدريسي الذي لا أحد يملك الدليل على أنه لم يتم بإيعاز من الشرفاء أنفسهم. من جهة أخرى فإنه لم يمض إلا وقت قصير حتى انقلبت أحوال الوطاسيين رأسا على عقب، فقد استرجع عبد الحق المريني دولته، وصفى جملة من أفراد الأسرة الوطاسية، وعين مساعدين من اليهود كان أبرز ما قاموا به ما نسب إليهم من إساءة للأشراف وضرب لامتيازاتهم السابقة. وقد أسفر هذا المناخ كما هو معلوم عن استبداد نقيب الشرفاء بفاس أبي عبد الله الحفيد الجوطي بالحكم بعد أن قام أحد الفقهاء بالإعداد للانقلاب على المرينيين مستنفرًا وجوه المدينة وجمهورها في سنة 1465.

وبحكم الوقائع المذكورة آنفا، فلا شك أن أرستقراطية الحسب والنسب التي يجسدها الشرفاء ومن انتسب إليهم أضحت تمثل في ظروف القرن الخامس عشر العسيرة وبشكل متنام بديلا ممكنا لإخفاقات وتفسخ العصبيات القبلية التقليدية التي سبق أن تنبأ بها

صاحب المقدمة منذ نهاية القرن السابق. وإذا كان رجوع محمد الشيخ الوطاسي إلى حكم مملكة فاس سنة 1471 قد بين أن قدرات المدينة العسكرية والاقتصادية لم تكن تسمح لها بالصمود بعد في وجه الحكام التقليديين الذين ما زال بإمكانهم استغلال غليان الأرياف لعقد تحالفات وتوافقات مجالية¹، فإن رجوع الوطاسيين إلى الحكم وانحزام الجوطي لم يغير في الواقع من نظرة محمد الشيخ للشرفاء، فهم والصلحاء حليف موضوعي لا غنى عنه، لذلك سرعان ما رأيناه ينخرط في سياسة المرينيين تجاه الشرفاء ويوجهها بحسب مصلحته، بحيث عين أحد الشرفاء الطاهريين نقيباً لهم بفاس، واستقبل أسراً شريفة نزحت من الاندلس، كالقادرين والصفليين والعراقيين، وأحاطها بعنايته. وجدير بالذكر أن بناء الضريح الإدريسي كرس لوقت، سياسة مخزنية مجربة، وأن هذه المبادرة الجديدة قد عززت موقف الفرع الجوطي المتجذر بالمدينة، غير أن الشك ما زال يلف مسألة بناء الزاوية بأبعادها الصوفية المقترحة في بعض الأبحاث، نظراً لكون بناء الزاوية الإدريسية قد تأخر فيما يبدو إلى عهد عبد الله الغالب السعدي (1557-1574).²

وبناء على ما تقدم فإن الاكتشاف كان يخدم مصالح الوطاسيين من جهة ومصالح النخبة الفاسية الموالية للجوطيين من جهة ثانية. لكن وفاة الحاجب أخرت فيما يبدو تحقيق تطلعاته. والراجح أن الجوطيين كانوا في المدى المتوسط أكبر من استفاد من هذا الاكتشاف. ومهما كان الأمر، فإنه في مجال توجيه الحياة الدينية والروحية بالبلاد لم يتمكن أي كيان من تحقيق ما كان يصبو إليه من احتكار للحياة الدينية لتعدد الفاعلين وحاجة الحاكمين في نهاية الأمر إليهم كأدوات لسياستهم الدينية وليس كشركاء. أما ما يتعلق بـ "المجتمع الحضري" فلربما كان من الأسلم الامتناع عن التعامل معه ككيان مؤثر من الناحية السياسية والاجتماعية لأن الهوية الحضرية بقيت منحصرة في التعبير الديني، ولحرص الممولين من أهل

¹ - أوغست كور، سبق ذكره ص. 46 و67-70

² - انظر هرمان بيك السابق الذكر ص. 233-236 وانتقاده لمحمد القبلي وغيره، في شأن إشارته إلى بناء زاوية على قبر إدريس الثاني وما استنتجته عقب ذلك.

الحواضر على صون نفوسهم من عدم الاستقرار الذي قد يتسبب في ضياع مصالحهم، وهذا ما حكم عليهم في كل مرة بتفويض شؤونهم لمن يعتقد أنه قادر على ضمان الأمن والاستقرار، أي لمن كان يمتلك الشوكة. ولعلنا في هذا لم نتجاوز الطرح الخلدوني في شأن أهل الحضر حينما قال " ... فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه وجاه ينسحب عليه من ذي قرابة للملك ... فيستظل هو بظلها ويرتع في أمنها من طوارق التعدي. وإن لم يكن له ذلك أصبح نهباً بوجوه التحيلات وأسباب الحكام"

مكناس من الحصن العسكري في العصر الوسيط إلى عاصمة للدولة في العصر الحديث

ذ. عبد المالك ناصري

الكلية متعددة التخصصات - تازة

أطلق اسم مكناسة في الأصل على التجمعات السكنية الصغيرة الواقعة بالشمال الغربي لمكناسة الحالية¹. وما لا خلاف فيه، بين المؤرخين والرحالة والجغرافيين²، أن المدينة أخذت اسمها من القبيلة التي أنشأتها. وكان امتداد وجودها تاريخيا بين ما قبل الإسلام والعصور الإسلامية³، فمن القبائل المكناسية من استوطن المغرب الأوسط، ومنها من استقر في سهول ملوية وفي نواحي تسول وتازة، واتجهت جموع أخرى نحو مكناسة الحالية، وقصد بعضها سجلماسة⁴، وتدفقت عناصر أخرى نحو المحيط الأطلسي وساحل البحر الأبيض المتوسط حول مليلية⁵.

ومكناسة التي تعيننا من هذه المجموعات القبلية، هي التي استقرت بالمنطقة الخصبة المحيطة بواد بوفكران شمال الأطلس المتوسط⁶، أما من حيث الموقع الطبيعي فإن مكناسة

¹ - ابن زيدان عبدالرحمان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ط2، مطابع إديال، الدار البيضاء 1990، ج1، ص 20.

² - الوزان الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، ص21. - الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت 1984، ص 544. - ابن غازي محمد العثماني، الروض المفتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط3، الرباط 1999، ص 7، 8. - ابن زيدان، إتحاف، ج1، ص 21.

³ - المنوني محمد، مدائن مكناسة القديمة من العصر الإدريسي إلى أواخر عصر الموحدين، أعمال ندوة الحاضرة الاسماعيلية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1988، ص 179.

⁴ - TERRASSE Henri, Villes impériales du Maroc, Editions B.Arthaud, Grenoble 1937, p.128-129.

⁵ - حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1985، ج1، ص 139.

⁶ - ابن زيدان، إتحاف، ج1، ص 21.

الزيتون تمتد على منطقة طبيعية شديدة التجانس، فهي توجد على الهامش الشمالي الغربي لمجموع السهول والهضاب الممتدة بين مقدمة الريف شمالا والأطلس المتوسط جنوبا وواد بهت وسبو في الغرب والشرق على التوالي، هذا الموقع الهام جعلها تحظى بمجموعة من المزايا الطبيعية، أهلتها لتكون منطقة جذب لمجموعات بشرية مختلفة عبر مراحل تاريخها.

وفي صدر الفتح الإسلامي، شكلت منطقة مكناسة الزيتون بلادا انتشر في أرجائها العديد من القرى التي نعتتها المصادر بأسماء مختلفة، فمنها من أطلق على مجموعها اسم مدينة مكناسة¹، معما هذه التسمية على كل التجمعات السكنية بالمنطقة. والظاهر أن توفرها على معمار ذي سمات حضرية، مثل المساجد والحمامات، هو ما دفع إلى اعتبارها كذلك، رغم ما تحمله هذه التسمية من غموض وتعميم²، ومنها من نعتها بحوائر³ أو قرى مكناسة⁴، ومنها من كان أكثر تخصيصا، فأطلق اسم مدينة على كل قرية من تلك القرى⁵، القرى⁵، ومنها من ألحق بها خطب فجعل لكل واحدة خطبة، حسب حجمها، مشيرا إلى وجود مسجد جامع بها⁶، ورغم تعدد الأسماء التي أطلقت على التجمعات السكنية بالمنطقة فقد كانت لها كل المواصفات التي تجعلها تتخذ شكل مدائن أو حوائر أو قرى أو خطب، غير أنها لم تتوفر فيها الشروط التي تجعلنا نصفها بالمدينة بالمفهوم المعتاد.

¹ - ابن أبي زرع علي الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط 1972، ص 51.

² - اللحية محمد، الحياة الاقتصادية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر (1850 - 1912)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، رسالة مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 1404-1984، ص 15.

³ - جمع حارة وهو المكان المظمن الوسط، المنبسط المتضح المعالم، وقد أطلق على البستان اسم الحائر، كما أنها تعني الحي، وأصل معناها المستدير من الفضاء، وكل مكان تدانت منازل حسب ما عرفها به ابن زيدان، إتحاف، ج1، ص 56.

⁴ - ابن غازي، الروض، ص 13، 15، 32، 34.

⁵ - الإدريسي الشريف محمد ابن عبد الله الحسيني، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المعهد الجامعي الشرقي، نابلي (د.ت)، ص 244 - 245.

⁶ - مجهول من القرن 6هـ/12م، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985، ص 188.

في هذه الفترة، شكلت مدائن مكناسة القديمة منطقة نفوذ للأدارسة، الذين أقاموا دولتهم بالقرب منها بجبل زرهون انطلاقاً من ورزيفة التي كانت موجودة خلال العصر الإدريسي الأول، ولا يستبعد أن تكون هي المركز الإداري لمنطقة مكناسة الإدريسية¹، خاصة وأن سكانها ناصرُوا الأدارسة في بداية حكمهم. ويذكرها البكري باسم "مدينة ورزيفة" ويصفها بأنها كانت "أهلة كثيرة المياه والثمار والخير"²، ويضيف أنها تعرضت لهجوم قوات القائد الفاطمي ميسور الفتى بعد عودته من فاس سنة 324 هـ/ 935 م، الشيء الذي يؤكد أهميتها في المنطقة. وبعد خمود إشعاع ورزيفة، ستخلفها مدينة "عوسجة" التي كانت تقع بالقرب منها مما يلي واد ويسلان³، اتخذها الأمير حمزة بن علي بن عمر ابن مولاي إدريس الثاني مقراً له، وتعرضت لغارة من موسى بن أبي العافية⁴، بعد ذلك اختيرت عوسجة كمقر لأمير مكناسة الزناتي، المهدي بن يوسف، وذلك سنة 455 هـ/ 1063 م⁵، ثم يختفي ذكرها كمدينة ويبقى اسمها ليدل على بعض المواضع من ورزيفة، التي سيندمج فيها كل من بني مروان وبني غفجوم⁶.

دخلت مكناسة الزيتون تحت النفوذ المرابطي في النصف الثاني من القرن 5 هـ/ 11 م، وبالضبط سنة 466 هـ/ 1073 م، ففي هذه السنة تم فتح مكناسة الزيتون على يد يوسف

¹ - المنوني، مدائن، ص 179-180.

² - البكري، أبو عبيد (ت 487 هـ) المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي (د.ط. القاهرة د.ت)، ص 155.

³ - المنوني، مدائن، ص 180، وواد ويسلان هو الذي يفصل هضبة حمرة عن بلاد دحيسة وسهل سايس شرق مدينة مكناس، واسم ويسلان كما ينطق خطأ يرجع أصله إلى الزناتية، ومصدره إسلي، ويعني العروس، وجمعه أسلان، وبذلك يكون واد ويسلان يعني واد العروس، ويجهل سبب إطلاق هذا الاسم على هذا الواد، للمزيد من التوضيح أنظر: شفيق محمد، أسماء الأماكن في المغرب جلد 1 أمازيغية، مجلة البحث العلمي السنة 14 العدد 27، يناير، يوليو 1977، ص 338.

⁴ - البكري، المغرب، ص 132.

⁵ - ابن أبي زرع، روض، ص 140.

⁶ - المنوني، مدائن، ص 180.

ابن تاشفين الذي استولى على خزائن حاكمها الخير بن خزر الزناتي¹، وذلك بعد مدة وجيزة من قيام المرابطين لتوحيد المغرب، فبعد إخضاعهم لرؤساء الحوائر، بسط المرابطون سلطتهم على المدينة وعلى ما جاورها من مدائن²، فتأقلم سكانها بسرعة شديدة مع الوضع الجديد الذي ساد المنطقة³ وأقاموا بالجهة الجنوبية للمجمع السكاني القديم مدينة صغيرة، ذات شكل محصن، أطلقوا عليها اسم تاكرارت، الذي يعني المحلة بلساخم⁴، فشكلت النواة الأولى لمدينة لمدينة مكناسة فيما بعد⁵.

كانت تحيط بمكناسة تاكرارت، خلال هذه المرحلة من تاريخها، مجموعة من الحوائر⁶، تعيش في أمن واستقرار، مما يفسر عدم وجود سور يحميها، وبالفعل فإن الحاجة لبنائه لم تصبح ملحة إلا بعد ظهور الموحدين كحركة مناوئة⁷، وبذلك أصبحت مكناسة عبارة عن قلعة عسكرية تعرف باسم تاكرارت، وفق خطة المرابطين العسكرية، التي حتمت عليهم إنشاء الكثير من الحصون والقلاع، على غرار ما أسسوه بمراكش وبمختلف جهات البلاد، لمواجهة الموحدين، فاكتمل بذلك وصف المدينة حسب الوظيفة التي أعدت لها. ومن المؤكد أن مدينة تاكرارت لم تكن في الأصل محاطة بسور، وكما هو الحال بالنسبة لمدينة مراكش، فإن سورها لم يبن إلا في مرحلة متأخرة من العهد المرابطي⁸، وتحديدًا في عهد علي بن

¹ - مؤلف أندلسي مجهول، من أهل القرن الثامن الهجري، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه، سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، ط1، الدار البيضاء 1979، ص 28.

² - القادري بوتشيش إبراهيم، المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع - الذهنيات - الأولياء، دار الطليعة، بيروت 1993، ص 12 - 13.

³ - TERRASSE, Villes impériales, op. cit. p. 135.

⁴ - ابن غازي، الروض، ص 18.

⁵ - TERRASSE, Villes impériales, op. cit p. 134 - 135.

⁶ - المنوني، مدائن، ص 179 - 180.

⁷ - ابن غازي، الروض، ص 17 - 18.

⁸ - المنوني محمد، التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور (التخطيط)، مجلة الثقافة المغربية، العدد 7، السنة 1972، ص 26.

يوسف ابن تاشفين، حيث تم الشروع في بنائه سنة 520 هـ/1126 م¹، مع العلم أن المدينة أسست سنة 462 هـ/1069 م. وبذلك تحولت مكناسة الزيتون من مدشر قبل المرابطين إلى قلعة في عهدهم، ويبدو أنهم لم يكن في نيّتهم فقط إنشاء تحصين يواجهون من خلاله الخطر الذي يهدد الدولة، بل كانوا يريدون أيضا إنشاء مدينة مرابطية حقيقية².

شكل حصن تاكرارات مركزا لمدينة مكناس، عرف مع مرور الأيام توسعا فوق الأراضي المحيطة به، فكان من الطبيعي أن ينتقل السكان المدنيون ليعمروا هذه الجهات، مما جعل من هذه المدينة أكبر التجمعات السكنية بالمنطقة، فتجاورت المباني المدنية مع المباني العسكرية، فكان بينها اتصال من أكثر من منفذ³.

كانت منطقة مكناسة هدفا شكل نقطة حماية ومراقبة بالنسبة للمرابطين طيلة عهدهم، وذلك في إطار حملتهم لتوحيد البلاد تحت نفوذهم، وهكذا عمل عبد المؤمن على محاصرة المدينة، بعد أن استعصى عليه دخولها، معتمدا في ذلك على مجموعة من القبائل التابعة له، وبعد أن يتس أهل المدينة المحاصرون من الخلاص وزاد أمر الموحدين ظهورا وانتشارا بتتابع القبائل الواردة عليهم، ولم يبق أمام حاكم المدينة وزعيمها يدر بن ولكوط إلا طلب النجاة بنفسه وأهله ورجاله، سلم المدينة للموحدين الذين عاثوا فيها قتلا ونهبًا، وكان ذلك في عام 545 هـ/1150 م، بعد أن كان نزولهم بها سنة 540 هـ / 1145م، حسب ما رجحه ابن غازي⁴. واستولى الموحدون على المدينة وأثقلوا أهلها بالمغارم، مما جعلها تعرف خلال بداية العهد الموحيدي أصعب المحن التي مرت بها في تاريخها.

¹ - مؤلف أندلسي مجهول، الحلل، ص 90.

² - TERRASSE, Villes impériale, op .cit . p. 135.

³ - المنوني، التخطيط، ص 25.

⁴ - ابن غازي، الروض، ص 23، 26 - 27.

وبعد هذه المرحلة المضطربة في تاريخ المدينة، بدأت تعرف انتعاشا ملحوظا، لما سادها من سلم واستقرار، فعرفت المدينة توسعا عمرانيا في اتجاهين، انطلاقا من جامع النجارين نحو الشمال ونحو الشمال الشرقي؛ وقد دشن ذلك بإنشاء الموحدين لقصبتهم، التي كانت مقرا لحاكم المدينة ومساعديه، وتأسيس دار الإشراف، التي خصصت للمشرف على استخلاص الجبايات أو صاحب الأعمال والموظفين التابعين له، وقد أسس هذان البناءان على أنقاض القلعة المرابطية، ولعلهما من بناء الناصر الموحي عام 600 هـ/1203 م¹.

وعمل الموحدون أيضا، على إحاطة المدينة بأسوار تخترقها ستة أبواب، فكانت هذه الأسوار تطوق ما يقارب ربع مساحة المدينة العتيقة الحالية، وبعد أن أصبحت المدينة على هذه الهيئة، استقطبت شيئا فشيئا ساكنة عديدة مما أعاد لها ازدهارها الذي عرفته في العصر المرابطي. ويذكر صاحب الاستبصار: "أن مكناسة بين سنتي 550-587 هـ و1155-1191م كانت مدينة "جليلة فيها أسواق حفيلة"²، ويستفاد من ذلك أن المدينة الجديدة في هذه المرحلة قد اتسعت عمارتها، وبدأت الحضارة تطبع حياتها، فقد "كانت في المدينة بداوة، ثم تمدنت واكتسبت حضارة"³، وعرفت هذه الحضارة ازدهارا كبيرا في عهد محمد الناصر الموحي (595-613هـ / 1198-1216م).

وبعد ضعف الدولة الموحدية، الذي كان له تأثير كبير على المدينة، بدأ التوازن الذي عرفته في هذه المرحلة يختل، وذلك تأثرا بالمتغيرات التي عمت البلاد، فكان ذلك بداية لنهاية دولة الموحدين و قدوم دولة المرينيين، التي دخلت المدينة بعد تسلمها حكم البلاد.

خلال العصر المريني تخربت مدائن مكناسة وحواثرها القديمة، القائمة في الشمال الغربي منها، وذلك بسبب الحروب التي اندلعت في المرحلة الانتقالية بين الموحدين والمرينيين،

¹ - المنوني ، التخطيط، ص 35 - 36.

² - مجهول ، الاستبصار ، ص 187.

³ - ابن غازي، الروض، ص28.

ولم يبق من تلك المدائن إلا آثارها¹، وقد لجأ أغلب سكان هذه القرى والمدائن إلى مدينة مكناسة، وهكذا وبعد انتهاء السلطان أبي يوسف يعقوب المريني من بناء البلد الجديد فاس، أمر ببناء قصبة مكناسة وجامعها²، وهذا يظهر أهمية مكناسة في السياسة العامة للمرينيين. وقد أسست هذه القصبة لأسباب سياسية بالدرجة الأولى، وذلك ما يفسر اهتمام بني مرين البالغ بها، بحيث كانت تأتي بعد فاس في أهميتها السياسية³.

واكتمل بناء قصبة مكناسة الجديدة في العهد المريني⁴، وبدأ الاهتمام بها يتضاعف مع الأيام، وقد تجلّى ذلك فيما زودت به المدينة من مرافق دينية وثقافية واجتماعية. وقد وازى هذا الازدهار العمراني نموا ديموغرافيا هاما، نتج عن العناصر الجديدة التي قدمت للاستقرار بالمدينة، فبدأت حالتها تتحسن، بعد الركود الذي تعرضت له من جراء كثرة الصراعات والفتن التي عرفتها البلاد خلال الفترة الانتقالية بين الموحدين والمرينيين. وكان عهد كل من يعقوب بن عبد الحق (656-685 هـ/1258-1286 م) وأبي الحسن علي ابن عثمان (732-749 هـ/1331-1348 م) من أزهى فترات ازدهار مكناسة المرينية، فقد " كانت يومئذ هي كرسي الوزارة، كما أن حضرة فاس الجديد هي كرسي الإمارة"⁵. وفي هذا العصر بدأت المدينة تتوسع في اتجاه الشرق، بسبب الانحدار القوي للمساحات الغربية، وهكذا فقد توافقت ذلك مع إنشاء أحياء عديدة في هذه الجهة؛ وفي الغرب أحدثت دور كثيرة، على محور شمالي جنوبي، وكانت المدينة ذات مساكن منتظمة ومتناسقة وبها أسواق تقام خارج المدينة، كما

¹ - نفس المصدر، ص 31 - 32.

² - ابن خلدون عبدالرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب بيروت 1959، ج 7، ص 195.

³ - الناصري، أبو العباس أحمد، كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ج 7، ص 48.

⁴ - TERRASSE Henri, Villes impériales, p. 138.

⁵ - الناصري، الإستقصا، ج 7، ص 48.

أنها كانت محاطة بأسوار حصينة¹، زاد من سمكها وعلوها الإصلاحات التي أدخلت عليها، وتم توزيع الماء داخل المدينة بشكل أكثر تنظيماً².

لكن في أواخر العصر المريني أخذ هذا الازدهار، الذي عرفته مكناسة، يخبو شيئاً فشيئاً، فبدأت بؤادر الفوضى تسود البلاد حوالي القرن 9 هـ/15 م، مما هدد النهضة التي عرفتها المدينة بالزوال والخراب إلى حين خلاصها على يد وزير عبد الحق المريني، وهو الأمير أبو زكرياء الوطاسي المتوفى سنة 852 هـ/1448 م، فقام بتجديد بعض ما تهدم من المنشآت³، لكن ذلك لم يكن كافياً، في ظل ما عرفته البلاد من تغيرات، ليعيد للمدينة نهضتها السابقة.

ورغم ذلك فقد تضررت مكناسة كثيراً من الصراعات التي نشبت بين أمراء المنطقة، وكانت طيلة هذه الفترة تمنح كإقطاع من طرف ملوك فاس لمن يتولى حكمها، وفي هذا الشأن يقول الحسن الوزان: "وفي أيامنا هذه أعطى الملك مدينة مكناس للأمير⁴ ليكون قسم منها من إقطاعه"⁵.

وبعد منتصف القرن 8 هـ/15 م، دب الضعف في الدولة المرينية، من جراء الفوضى التي سادت المغرب، خلال هذه المرحلة؛ وهكذا فقد كان من الطبيعي أن تتأثر مدينة مكناس، كثاني مدينة بعد فاس، من حيث الأهمية بالنسبة لبني مرين، وقد برز واضحاً هذا التأثير من خلال التراجع الواضح للطابع المعماري للمدينة، بعد الازدهار الذي عرفته في الفترة

¹ - الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص 214-215

² - BARRUCAND Marianne, Urbanisme princier en islam, Meknès et les villes royales islamiques poste médiévales, Geuthner, Paris 1955, p. 20.

³ - المنوني، التخطيط، ص 46.

⁴ - لعله كان يقصد السلطان محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي وأخاه الأمير الناصر.

⁵ - الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص 215.

السابقة، فأهملت مبانيها دون استثناء، وبدا هذا التلاشي واضحاً في تخدم أسوارها، التي صارت بحاجة إلى الترميم¹.

ورغم ما عرف عن الوطاسيين من إهمال لمدينة مكناس، فهناك بعض النصوص² المنتمية للفترة المعنية تورد أن المدينة كانت حسنة البناء تحيط بها أسوار متينة تعلوها بروج مشيدة على النمط العتيق، ولازالت، لحدود تلك الفترة، تحتفظ بحماماتها وقصورها ومساجدها المبنية على الطراز السائد عند أهل البلد، وبها سوق خارج المدينة يقام كل يوم اثنين، ويقصده الأعراب والبربر من جميع أنحاء المنطقة للبيع الشراء. كل ذلك لا ينفي عن الوطاسيين إهمالهم للمدينة، فلم يثبت عنهم في المصادر أنهم أضافوا إلى ما هوقائم من المنشآت المعمارية شيئاً له شأن يجاري ما عرفته مكناسة في عهودها السابقة باستثناء ما قام به أبو زكرياء الوطاسي.

وفي سنة 955 هـ/1548 م دخل الأشراف السعديون مدينة مكناس، لكن لم يولوها الاهتمام الذي تستحقه³، وفي سنة 956 هـ/1549 م. أي في بداية العهد السعدي. وصفت المدينة بأنها كان: "لها قصبة حصينة وبنائاتها جيدة ويمكن أن يصل عدد من تضمهم من السكان حتى ستة آلاف، معظمهم فلاحون، لأنه وإن كانت بها تجارة [...] فإن عملهم الرئيسي هو الزراعة لأن الأرض خصبة جداً"⁴. هذا الكلام يجسد لنا مدينة مكناس بهذه المرحلة على شكل مدينة فلاحية بالدرجة الأولى، غير ذات أهمية سياسية في حياة الأشراف

¹ - الونشريسي أحمد يحيى، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب (المعيار)، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1401 هـ/1981 م، ج5، ص304.

² - الوزان، وصف إفريقيا، ص215. - مارمول كريخال، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حاجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، المعارف الجديدة، الرباط 1408 هـ/1988 م، ج2، ص140-141.

³ - Dominique et Janine Sourdel, Dictionnaire historique de l'islam, Ed. Puf, Paris 1996, p. 564-565.

⁴ - ديكو دي طويريس، تاريخ الشرفاء، ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، 1988، ص132.

السعديين، وبذلك فهي منكمشة على نفسها باستثناء النشاطين التجاري والصناعي اللذين تعرفهما، وزادت عزلتها باتخاذ السعديين لمدينة مراكش عاصمة، مما ساهم في ركود المدينة على جميع المستويات¹، واستمر ذلك إلى بداية القرن 11 هـ/17 م، حيث بدأت المدينة تعرف انتعاشا اقتصاديا بفضل ما يتمتع به أهلها من خبرة صناعية وما تتوفر عليه من منتجات فلاحية، وبما تتمتع به من مميزات، جعلتها تفضل بعض المدن الأخرى بمياها العذبة الوفيرة وأراضيها الخصبة الغنية². ورغم ذلك فإن وضعها كان كنقطة أوكمرحلة على خط الطريق الرابط بين فاس ومراكش، يجعلها تأخذ وضعها ضمن خريطة المغرب السعدي، فكانت تضم قصرا للسلطان ينزل به متى مر بها في تنقلاته³.

ورغم ذلك، فمكناسة الزيتون كانت تتوفر على كل المقومات الطبيعية والبشرية والحضارية، لتصبح حاضرة كبرى تنافس مراكش وفاس؛ فكل الرحالة الذين وصفوها خلال هذه المرحلة من تاريخها لاحظوا أنها كانت قليلة السكان كثيرة الخيرات، ومع ذلك فالسلاطين السعديون لم يعيروها ما تستحقه من اهتمام، على غرار المدن الأخرى، وذلك راجع كما سبق إلى أنها لم تعد تكتسي أهمية سياسية تذكر، خاصة فيما يخص الصراع حول السلطة⁴.

أول إشارة إلى العلاقة بين الشرفاء العلويين ومدينة مكناسة الزيتون تعود إلى بناء مولاي إسماعيل لداره بها منذ قدم إليها مع أخيه مولاي الرشيد، الذي جعله خليفة عليها،

¹ -TERRASSE, Villes impériales, p. 140.

² -CHAMPION Pierre , Les villes d'art célèbres : Tanger, Fès et Meknès, Librairie Renouard . H., Lourens , Paris 1924 , p. 103.

³ -AOUCHAR Amina, Meknès, le passé d'une ville impériale et les promesses d'un destin régional, in: Revue Maroc Europe, n° 12 – 1999 / 2000, Editions La Porte, Rabat. p. 12 .

⁴ -BARRUCAND, Urbanisme, p. 20.

وكان يخلفه أيضا بحضرة فاس¹، متى خرج لبعض حملاته العسكرية². وبعد مبايعته بالخلافة³ اتخذ منها عاصمة، وبذلك عمل على تهيئتها لتكون في مستوى اختياره، وذلك بإقامته لمجموعة من المنشآت المعمارية الخاصة به، وهكذا: "رتب أشغاله بمكناسة إذ كان لا يبغي بها بدلا، حيث أعجبه ماؤها وهواؤها وشرع في بناء قصوره بها"⁴.

وخضع اختيار مكناسة الزيتون عاصمة للبلاد لمجموعة من المعايير منها:

1. الوضع الجغرافي: فالمدينة تمتد على منطقة جغرافية تمتلك كل المؤهلات

الطبيعية⁵ التي جعلها تستأثر باختيار مولاي إسماعيل لها لتكون عاصمة له، فمنذ استقراره بها وإعجابه يزيد يوما عن يوم. إضافة إلى أن موقع المدينة المتميز على هضبة غير مرتفعة بالقرب من جبال الأطلس المتوسط جعلها تشكل نقطة تواصل بين أطراف البلاد وجهاتها المختلفة، مما يسهل عملية المراقبة لكل التحركات التي تشكل خطرا على السلطة المركزية، بحيث أنه بين 1085هـ و1105هـ/ 1674م و1693م، لم يتوقف مولاي إسماعيل عن إرسال حملاته العسكرية التي كانت تجهز من مكناس، لإخماد ثورات قبائل الأطلس المتوسط، إضافة إلى أن المدينة كانت تشكل نقطة مراقبة للحركة التجارية على الطريق المحوري المار بتادلا، والرابط بين مراكش وفاس، وأيضا المحور الرابط بين فاس وسلا، إضافة إلى الطرق المتجهة نحو الجنوب⁶، وقد وصفها صاحب زهر البستان بأن "خيرها كثير وماؤها عذب نعيم وهواها صحيح وحوزها

¹ - الكنسوسي أبي عبد الله محمد، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السحلماسي، تحقيق وتقديم وتعليق أحمد ابن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش 1994، ج1، ص 119.

² - الريفي عبد الكريم ابن موسى، زهر الأكم، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، المعارف الجديدة، الرباط 1992، ص 172.

³ - العياشي محمد المكناسي، زهر البستان في نسب أحوال سيدنا المولى زيدان، مخطوط خ.م. الرباط رقم ز3274، ورقة 35. - الكنسوسي، الجيش، ج1، ص 119-120. - ابن زيدان عبد الرحمان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، ط1، مطبعة إديال، الدار البيضاء 1993، ص 45 - 46.

⁴ - الزباني أبو القاسم، البستان الظريف في أولاد مولاي الشريف، ط1، المعارف الجديدة، الرباط 1992، ج1، ص 147.

⁵ - FASSI Driss, Géographie physique de la région de Meknès, in Revue de géographie du Maroc, n° 1, 1977, p. 25.

⁶ - BENZIDANE Moulay Slama, Meknès cette ville que j'aime, in Revue Maroc Europe, n° 12, Ed. La Porte, Rabat 1999-2000, p. 46 - 47.

فسيح"¹، وفي نفس السياق يضيف الناصري أنها " اختصت [...] بطيب التربة وعذوبة الماء وصحة الهواء وسلامة المختزن من التعفن"².

2. **الموقع الاستراتيجي:** أثبتت الأيام أن أهل فاس وقبائل الأطلس المتوسط كانت تربطهم علاقات متينة، ووجود المدينة بجوار هذه القبائل ساعد على مراقبة تحرك الجانبيين، كما أن موقعها وسط المحور الطرقي، الذي يربط الشمال والشمال الغربي بالجنوب، جعلها همزة وصل بين أطراف البلاد، إضافة إلى أنها تمتاز ببعدها عن سواحل البحر الأبيض المتوسط وعن المحيط الأطلسي، مما يحميها من الهجمات التي يمكن أن تأتي من البحر، كما أن موقع المدينة بين سلسلة زرهون والهضاب التي تمتد إلى الأطلس المتوسط، يجعلها تشكل نقطة مراقبة للحدود الغربية للممر الذي يوحد المغرب الأطلنטיكي مع المغرب الشرقي والجزائر، إضافة إلى أنها تشغل الممر الطبيعي الذي يؤدي إلى الغرب عبر واد الردم وفج زكوة³. يضاف إلى ذلك أن مولاي إسماعيل كان يريد الابتعاد عن المراكز القديمة، فاس ومراكش، اللتين كانتا غير مستعدتين للخضوع للنظام الجديد وما وقع بهما من قلاقل سياسية ومؤامرات، أدت إلى استحالة إقامة مركز الحكم بهما، كما كان يريد تفادي الخطر الذي يمكن أن يأتيه من الجبال الأطلسية أو من السواحل المتوسطية أو الأطلنטיكية، فكانت مكناس تتوفر على كل المواصفات التي كان يريدها لعاصمة ملكه، التي شكلت قاعدة لنشر الأمن الداخلي ولتوحيد أطراف البلاد⁴.

3. **أسباب سياسية:** منذ البداية لم تستجب فاس ومراكش لمتطلبات النظام الجديد⁵، مما استدعى إنشاء عاصمة جديدة؛ لذا فاختيار مكناس كان يرمي إلى الابتعاد عن الحواضر

¹ - العياشي، زهر البستان، ورقة 47.

² - الناصري، الاستقصاء، ج7، ص 48 - 49.

³ - BENZIDANE, Meknès, p. 43.

⁴ - AOUCHAR, Meknès, p.12.

⁵ - الكنسوسي، الجيش، ج1، ص 120.

الكبرى التقليدية، كما أن بعد مدينة مراكش عن فاس وتافيلالت والأطلس المتوسط لم يؤهلها لتحظ باختيار مولاي إسماعيل؛ يضاف إلى ذلك أن الثورة التي عرفتها فاس أكدت أن استقرار الملك في هذه المدينة لن يكون سهلا، في جومن الفتن والمؤامرات، وكان أهل فاس يشكلون عسبا اقتصاديا يتحكم في محور فاس - تافيلالت، وذلك باعتبارهم وسطاء وزبناء في آن واحد، كما أن الأعيان من الفاسيين كان يثير مخاوفهم نظام أقيم على القوة العسكرية المشككة من العبيد، وأن أهل تافيلالت، الذين قدموا إلى فاس أصبحوا يشكلون طبقة حاكمة ذات قوة ضغط تحرم الفاسيين من مجموعة من الامتيازات الاقتصادية، مما شحن الأجواء بين الطرفين، فانعكس ذلك على الوضع العام للمدينة. لذا فمكناس كانت تعرف نوعا من الهدوء السياسي، وبالتالي كانت لها الأفضلية على فاس ومراكش في حسابات مولاي إسماعيل السياسية. وكانت بذلك عبارة عن قاعدة عسكرية لحملاته قصد توحيد وتهدئة البلاد¹، فموقعها المركزي وسط البلاد كان لا يؤهلها فقط لمراقبة تحركات المناطق الجنوبية بل أيضا يمكن من الانطلاق بسرعة أكبر في اتجاه المرافئ المحتلة كطنجة والعرائش وأصيلا والمعمورة، والتي تم تحريرها، وأيضا مراقبة التجارة البحرية بين تطوان وسلا²، ولتسهيل ذلك عمل مولاي إسماعيل على إقامة مجموعة من القلاع والحصون على امتداد كل الطرق بالبلاد، إضافة إلى تشييد العديد من القناطر وخاصة حول المناطق القريبة من العاصمة³.

لقد بذل مولاي إسماعيل كل جهوده ليجعل من مكناس عاصمة في مستوى الأحداث التي عرفتها البلاد خلال هذه المرحلة، فكان اهتمامه بتشيد معالمها لا يقل أهمية عن اهتمامه بتثبيت سلطته داخل البلاد وتوطيد علاقاته الدبلوماسية مع الخارج شرقا

¹ - BENZIDANE, Meknès, p. 46 - 47 .

² - AOUCHAR, Meknès, p.14 .

³ - ابن زيدان، المنزع، ص 333 ، 339.

وغرباً¹، فلم يثنه شيء عن تصميمه على تحويلها إلى مدينة عظمى محصنة بالأسوار. وهكذا وبعد فراغه من كبح ثورة أهل فاس، وتهدئة القلاقل السياسية التي عرفت منطقة سوس²، شرع في بناء المدينة الملكية الجديدة بمكناس ليتخذها مقراً له بعد توليه عرش البلاد³، فبدأ بإدخال تغييرات على المدينة القائمة لعهد، حيث أزيلت مجموعة من منازلها، وأمر أصحابها بالانتقال إلى الجانب الغربي، وهياً لهم مكاناً لبناء دورهم به، وأزال الجزء الشرقي من المدينة العتيقة وأضافه إلى القصبة القديمة، وأقام ساحة الهدم والقصور والمنشآت المنفتحة عليها، وأحاطها بسور لعزلها عن المدينة العتيقة⁴، كما أنه حاول أن يجعل المزارع المحيطة بها داخل السور⁵، ولم يقف البناء في القصبة طيلة العهد الإسماعيلي⁶، "وأبدى فيها من العمارة والغروس والأبنية الرائقة، والأماكن الزاهرة الفائقة ما شرفت به على بلاد المغرب"⁷. وبذلك تمكن من تحويل مكناسة الزيتون إلى حاضرة كبيرة تنافس الحواضر التقليدية السابقة فاس ومراكش.

وهكذا شرع مولاي إسماعيل في تهيئة كل الوسائل، لتكون المدينة في مستوى اختياره، فبدأ بترتيب أموره بها وتزويدها بالمنشآت الضرورية لتقوم بدورها كعاصمة للبلاد⁸، حيث شيد شيد بها قصبته والقصور المرتبطة بها⁹، مما كان له تأثير واضح على مورفولوجية المدينة القائمة

¹ - ابن زيدان عبد الرحمان، العلاقات السياسية للدولة العلوية، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط 1999، ص 47.

² - العياشي، زهر البستان، ورقة 36.

³ - MIEGE Jean Louis, Une description de Meknès en 1704, in Revue Maroc Europe, n° 12 - 1999 / 2000, Editions La Porte, Rabat, p. 36, Relation, p. 69.

⁴ - الزياتي، البستان، ج 1، ص 148.

⁵ - العياشي، زهر البستان، ورقة 47.

⁶ - الناصري، الاستقصا، ج 7، ص 49.

⁷ - الريفي، زهر الأكيم، ص 172.

⁸ - الزياتي، البستان، ج 1، ص 147.

⁹ - العياشي، زهر البستان، ورقة 47.

لذلك العهد، وذلك من خلال ظهور أحياء جديدة، وإحاطة المدينة بأسوار حصينة تحيط بها قصبات تحميها.

وقد تطلب ذلك إعداد المجال لإقامة مدينته الملكية، وهكذا بدأ بتوسيع أسوار الجهة الغربية وهدم الدور الواقعة بالقسم الشرقي من المدينة، لدججه في القصبة، وأقيمت مكانها ساحة الهدم والمنشآت المجاورة لها، وعمل على نقل سكان هذه الجهات إلى شمال وغرب المدينة، وبناء أسوار وتحصينات جديدة على أنقاض البنايات القديمة¹، وكان ذلك ابتداء من سنة 1084هـ / 1673م، بعد عودته من حصار مدينة فاس، فهدم ما يلي القصبة من المنازل فانتقل عنها أصحابها إلى الجانب الغربي، فبنوا هناك دورهم، وهدم الجانب الشرقي من المدينة وزاده في القصبة القديمة، ولم يبق أمامه إلا الفضاء، فجعله قصبة، وأقام سور المدينة وعزلها عن القصبة².

شكلت القلاقل، التي نشبت بعد وفاة مولاي الرشيد الشغل الشاغل لمولاي إسماعيل، وخاصة تلك التي اندلعت بفاس ومراكش، لكن بعد تمكنه من تركيز سلطته اتجه اهتمامه للبناء والتشييد³ الذي كان يدخل في استراتيجيته العسكرية بنسبة كبيرة، فكان اشتغاله ببناء قصبته لا يقل أهمية عن اهتمامه بفتوحاته العسكرية، لذلك فإن القصبة الإسماعيلية اتخذت هيئة وصفها الريفي بأنها " لا نظير لها في معمور الأرض بالطول والعرض"⁴.

وكان أول ما بدأ به مولاي إسماعيل، هو تهيئ المجال والمساحات المناسبة لبناء قصبته⁵، وذلك بهدم الدور الموالية لها وترحيل أصحابها إلى الجانب الغربي من المدينة، وأزال القسم الشرقي كله من المدينة وأضافه للقصبة، واستغل المساحات المتبقية، التي كانت فارغة من

¹ - الزباني، البستان، ج1، ص 148.

² - العياشي، زهر البستان، ورقة 47.

³ - الكنسوسي، الجيش، ج1، ص 151.

⁴ - الريفي، زهر الأكمل، ص 173-174.

⁵ - الكنسوسي، الجيش، ج1، ص 120-121.

السكان لتوسيع قصبته، وبذلك هيا الأرضية المناسبة لإقامتها وتشيد أركانها، ثم عزلها عن المدينة العتيقة بالأسوار¹.

ولتنفيذ هذا المشروع الضخم، عمل مولاي إسماعيل على جمع مهرة البنائين من مختلف أنحاء المغرب، وأضاف إليهم عددا من الأسرى الأجانب، الذين كان من بينهم المهندسون والبنائون والنجارون والحدادون والرخامون والنقاشون والزواقون والحجارون ومن يتقن مهارات حرفية أخرى²، وإلى جانب هؤلاء كانت السجون الإسماعيلية تغص بعدد من أهل الجرائم المختلفة³، شكلوا يدا عاملة هائلة في القيام بعملية البناء والتشييد، وهناك جماعات بشرية أخرى سخرت للعمل إلى جانب المجموعات السابقة، وهم جماعات السخرة، التي كانت تقدمها القبائل بالتناوب مع ما يرافقهم من دواب ووسائل عمل تفرض على كل قبيلة، كما فرض على الحواضر الصناع والحرفيين في البناء كل شهر⁴، فكان البناء بالقصبة عبارة عن عملية سخرة كبيرة اشتركت فيها كل القبائل والمدن بما فرضه عليها من العمال والبهايم في كل شهر⁵، وأضيف إلى هذه اليد العاملة أبناء عبيد المحلة بمشرع الرمل، الذين وظفوا لمساعدة البنائين والنجارين، كما وظف جزء منهم بسوق البغال التي تنقل الآجر والزليج والقرمود والخشب، وعمل آخرون منهم في خدمة اللوح وتحيي الطابية⁶، وليس هناك شك أن هذه الجموع البشرية، من عمال وفنيين، سيعملون في نطاق ما يرغبه مولاي إسماعيل من أشكال بنائية تنسجم مع الأساليب التي كانت سائدة بالبلاد في تلك المرحلة.

ومن المؤكد أن المرحلة الأولى لإقامة المنشآت الإسماعيلية عرفت تأسيس القصبة، لتكون مستقرا وحصنا للأمير وحاشيته، حيث مثلت بامتياز ما اصطلاح عليه بالمدينة الملكية

¹ - الناصري، الاستقصا، ج7، ص49.

² - الزياتي، البستان، ج1، ص188-189.

³ - العياشي، زهر البستان، ورقة51.

⁴ - الزياتي، البستان، ج1، ص148.

⁵ - العياشي، زهر البستان، ورقة47.

⁶ - الكنسوسي، الجيش، ج1، ص133.

أو المدينة الأميرية، انطلاقاً من كون نشأتها جاءت بأمر من السلطان، لذا ضمت عددا من المرافق الخاصة به، وبكبار موظفيه، إضافة إلى الأجزاء الخاصة بالجند والخدم، كل ذلك تمت إحاطته بأسوار تعزله من جهة عن المدينة العتيقة، ومن جهة أخرى، عن محيطهما¹.

وتعتبر الدار الكبيرة من بين أول المنشآت، التي أقامها مولاي إسماعيل بعد مبايعته سنة 1082هـ/1672م²، وقد ضمت هذه الدار مجموعة من القصور منها، قصر مولاي زيدان وقصر الشعشاع وقصر الكشاشين وقصر النصر وقصر الستينية، ولا يزال حي سيدي النجار يحتفظ بأسماء بعض هذه القصور، حيث نجد، زنقة مولاي زيدان وزنقة قصر الشعشاع وزنقة قصر الكشاشين وغيرها. وفي فترة موالية، يصعب علينا الآن تحديدها، أضيفت قصور أخرى إلى جانب الدار الكبيرة، مثل قصر المدرسة وقصر المنشة بحدائقهما، واستمر بناء القصور داخل القصبة، فكان مولاي إسماعيل " كلما أكمل قصرا أسس غيره"³.

وكانت للقصبة الإسماعيلية عدة ملحقات ذات وظائف مختلفة، كالأهرية⁴، وقريبا من هذه المنشآت أقام مولاي إسماعيل بركة ماء متسعة تعرف بصهريج السواني⁵، الذي كان معدا معدا لحفظ المياه للأيام العصيبة⁶، ومن التأسيسات الإسماعيلية الملحقمة أيضا بالقصبة السرداب الموجود تحت أرض قبة الخياطين، والمعروف بحبس قارة، والذي كان مخصصا لإقامة

¹ - BARRUCAND, Urbanisme, p. 11.

² - ابن زيدان، الخاف، ج1، ص 134.

³ - الزياتي، البستان، ج1، ص154. - العياشي، زهر البستان، ورقة 47.

⁴ - BARRUCAND Marianne, L'Architecture de la Qasba de Moulay Ismail à Meknès, in Etudes et Travaux d'Archéologie Marocaine, T VI, 1976 et Les Editions Maghrébines, Casablanca 1980, p. 25.

⁵ - الزياتي، البستان، ج1، ص154.

⁶ - ابن زيدان، المتزج، ص359-360.

الأسرى وغيرهم من المساجين¹، وقد ألحقت بقصور القصبة الإسماعيلية عدة مساجد، بحيث أن كل قصر كان يحتوي على مسجد ومدرسة².

كانت مدينة الرياض العنبري مدينة ملحقة بالقصبة الإسماعيلية، في الجهة الجنوبية الغربية منها، حيث عينها مولاي إسماعيل للأودايا فأمر ببناء منازلهم بها³، وقد أولاهها مولاي إسماعيل اهتماما خاصا⁴، فهي كرسي الوزارة في دولته، حيث كانت مخصصة لموظفي الدولة الكبار، الذين تفتنوا في تشييد دورهم بها⁵، إضافة إلى المسجد الجامع الأعظم الإسماعيلي، بمدرسته وحمامه وخانه وأسواقه المحبسة عليه⁶، والتي شكلت نسيجاً عمرانياً فريداً، جعلها تستقل به عن القصبة وعن المدينة العتيقة. لكن هذه المدينة لم تعمر طويلاً، حيث هدمت بأمر من السلطان عبد الله بن إسماعيل عام 1143هـ/1731م، وبذلك لم يستمر معمارها أكثر من 55 سنة، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى لعوامل سياسية. وكان بها طائفة كبيرة من أحواله الأودايا⁷ وغيرهم، الذين رحلوا عنها إلى فاس الجديد، وتفرق غيرهم بمدينة مكناس⁸، فأصبحت مدينة الرياض العنبري عبارة عن أنقاض، ولم يبق قائماً منها سوى بابها الغربي، مع أجزاء من السور المتصل به من جهة "حي سيدي سعيد"⁹.

¹ - المنوني محمد، دليل القصبة الإسماعيلية بمكناس، دعوة الحق، ع 4، س 1967، ص 110.

² - BARRUCAND, L'Architecture, p. 66-67.

³ - الكنسوسي، الجيش، ج 1، ص 122.

⁴ - الضعيف محمد ابن عبد السلام، تاريخ الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان 1043هـ/1633م - 1238هـ/1812م، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيعي، ط 1، دار الثقافة، الدار البيضاء 1988، ج 1، ص 175.

⁵ - الزياتي، البستان، ج 1، ص 150.

⁶ - نفس المصدر، ج 1، ص 247.

⁷ - من قبائل عرب المعقل بالصحراء انتقلت في عهد مولاي إسماعيل إلى حوز مراكش، حيث اتخذ منهم إحدى أهم فرق العسكرية التي كانت تعرف بالوداية، وكان فريق منهم يدخل في حاميي فاس ومكناس.

⁸ - الزياتي، البستان، ج 1، ص 246.

⁹ - ابن زيدان، إتحاف، ج 1، ص 156 - 157 - 164.

ومن التأسيسات التي أولاها مولاي إسماعيل اهتماما خاصا، القصبات المحيطة بالمدينة والمتصلة بأسوارها، وهي قصبة برمة، ثم قصبة قعر وردة أو قاع وردة، كما يسميها الريفي¹، وقصبة سيدي سعيد وقصبة تزيمي الكبرى²، وقصبة جناح الأمان وغيرها من القصبات التي كانت مخصصة لحماية المدينة.

أما المدينة العتيقة، فقد عرفت معالمها العمرانية بأنواعها المختلفة تغييرات كثيرة³، تبعا للترميمات والتجديدات التي أدخلت عليها من طرف مولاي إسماعيل، وكان المسجد الجامع الأعظم في مقدمة المنشآت التي تم تجديدها، وكان الشروع في ذلك سنة 1107 هـ/1695 م، واستمر ذلك إلى سنة 1109 هـ/1697 م⁴، وعرفت جميع المساجد، التي كانت قائمة قبل مولاي إسماعيل، العديد من التجديدات في عهده، على غرار المسجد الجامع الأعظم، وذلك تماشيا مع الاهتمام الكبير الذي أولاه للمعمار الديني، حيث أضاف مجموعة من المساجد من إنشائه، وأهمها مسجد الزيتونة، الذي أسس سنة 1099 هـ/1687 م، والذي يعد من المساجد الكبيرة بالمدينة، وأقام مسجد باب البرادعيين، وذلك سنة 1121 هـ/1709 م، أما المدارس الموجودة داخل المدينة، فقد عرفت هي أيضا تجديدات مهمة خلال العهد الإسماعيلي، حيث جددت مدرسة الشهود سنة 1130 هـ/1717 م، إضافة إلى المدرسة البوعنانية أو الجديدة ومدرسة الخضارين، اللتين عرفتا ترميمات في كثير من جوانبهما⁵.

وقد عرفت أضرحة المدينة وزواياها بدورها إضافات وتجديدات جد مهمة، نظرا للمكانة التي كانت تحتلها في قلب العام والخاص، فتمت إقامة العديد منها وترميم ما كان سابق الوجود. وينطبق نفس الشيء على السقايات وعلى المرافق ذات النفع العام، حيث

¹ - الريفي، زهر الأكم، ص 185.

² - ابن زيدان، إنحاف، ج 1، ص 170.

³ - TERRASSE, Villes impériales, p. 148 .

⁴ - ابن زيدان، المنزع، ص 325 - 326.

⁵ - ابن زيدان، إنحاف، ج 1، ص 168 - 169 .

عرف هذا النوع من المعمار تطورا كبيرا بما يقتضيه وضع المدينة كعاصمة للبلاد. وبشكل عام فالمدينة العتيقة لم تختلف عما عرفته القصبة الإسماعيلية من تطور عمراني، بل كان معمارها يسير في خط متواز مع ما كان يحدث بجوارها من إنشاء وتعمير بالقصبة.

وقد عمل مولاي إسماعيل على إحاطة حاضرتة بسور ضخمة، يمكن التمييز فيه بين ثلاث أنواع من الأسوار، الصنف الأول منها له طبيعة حمائية، كان يشكل الحدود الخارجية للقصبة، وكان يحيط بكثير من المساكن داخل المدينة، أما النوع الثاني من هذه الأسوار فوظيفته حدودية، بحيث كان هذا الصنف يعزل القصبة الإسماعيلية عن غيرها من المنشآت بالمدينة، وقد تميز بضخامته وانتفاء كل عناصر الجمالية فيه، أما النوع الثالث والأخير فله دور داعم للأسوار الحدودية للقصبة، وهي تتوفر على شرفات وكوات ذات قاعدة مسطحة¹ وتتخللها العديد من الأبراج والتحصينات، وتحترقها الكثير من الأبواب²، التي كان ينتصب على أغلبها أبراج مجهزة بالمدافع³، وكانت هذه الأبواب تسهل التواصل بين القصبة والجهات المختلفة من المدينة وما يحيط بها، وكان هذا السور يعزل المدينة عن القصبة⁴.

وقد شكلت هذه الأسوار مظهرا بارزا من مظاهر العمارة العسكرية، خلال المرحلة الإسماعيلية؛ فكانت بذلك دليلا قويا على ما وصلت إليه المدينة من تحضر وازدهار، بحيث شكلت درعا واقيا للسلطة القائمة، إضافة إلى كونها شكلت حدودا أنشئت لإحكام الصلة بين المجالين الحضري والبدوي؛ ورغم الصفة العسكرية لهذه الأسوار، فإنها تعكس المستوى الحضري لمنشئها، الذي كان يطمح لجعل "عاصمة ملكه حاضرة في بادية وبادية في حاضرة"⁵.

¹ - BARRUCAND, Urbanisme, p. 58.

² - الزياتي، البستان، ج1، ص 154 .

³ العياشي، زهر البستان، ورقة 48 .

⁴ الكنسوسي، الجيش، ج1، ص 121.

⁵ - ابن زيدان، إنحاف، ج1، ص 138-139.

الببليوغرافيا المساعدة

- ابن أبي زرع علي الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط 1972
- ابن خلدون عبدالرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب بيروت 1959، ج7
- ابن زيدان عبد الرحمان، العلائق السياسية للدولة العلوية، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط 1999
- ابن زيدان عبد الرحمان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، ط1، مطبعة إديال، الدار البيضاء 1993
- ابن زيدان عبدالرحمان، إنحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ط2، مطابع إديال، الدار البيضاء 1990، ج1
- ابن غازي محمد العثماني، الروض الممتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط3، الرباط 1999
- الإدريسي الشريف محمد ابن عبد الله الحسني، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المعهد الجامعي الشرقي، نابلي (د.ت)
- البكري أبو عبيد (ت 487 هـ) المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي (د.ط) القاهرة (د.ت)
- حركات ابراهيم، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1985، ج1
- الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت 1984
- ديكودي طوريس، تاريخ الشرفاء، ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، 1988
- الريني عبد الكريم ابن موسى، زهر الأكم، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، المعارف الجديدة، الرباط 1992
- الزباني أبو القاسم، البستان الظريف في أولاد مولاي الشريف، ط1، المعارف الجديدة، الرباط 1992، ج1
- شفيق محمد، أسماء الأماكن في المغرب جلها أمازيغية، مجلة البحث العلمي السنة 14 العدد 27، يناير، يوليو 1977

- الضعيف محمد ابن عبد السلام، تاريخ الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان 1043هـ / 1633م - 1238هـ / 1812م، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيشي، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء 1988، ج1
- العياشي محمد المكناسي، زهر البستان في نسب أحوال سيدنا المولى زيدان، مخطوط خ.م. الرباط رقم ز3274
- القادري بوتشيش إبراهيم، المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع - الذهنيات - الأولياء، دار الطليعة، بيروت 1993،
- الكنسوسي أبي عبد الله محمد، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تحقيق وتقدم وتعليق أحمد ابن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش 1994، ج1
- اللحية محمد، الحياة الاقتصادية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر (1850 - 1912) رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، رسالة مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 1404-1984
- مؤلف أندلسي مجهول، من أهل القرن الثامن الهجري، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه، سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة ، ط1، الدار البيضاء 1979
- مامول كرنخال، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حاجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، المعارف الجديدة، الرباط 1408هـ/1988م، ج2
- مجهول من القرن 6هـ/12م، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985
- المنوني محمد، التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور، مجلة الثقافة المغربية، العدد 7، السنة 1972
- المنوني محمد، دليل القصة الإسماعيلية بمكناس، دعوة الحق، ع 4، س 1967
- المنوني محمد، مدائن مكناسة القديمة من العصر الإدريسي إلى أواخر عصر الموحدين، أعمال ندوة الحاضرة الاسماعيلية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1988
- الناصري، أبو العباس أحمد، كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ج7
- الوزان الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حاجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983

■ الونشريسي أحمد يحيى، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1401هـ/1981م، ج 5.

- AOUCHAR Amina, Meknès, le passé d'une ville impériale et les promesses d'un destin régional, in: Revue Maroc Europe, n° 12 -, Editions La Porte, Rabat 1999 / 2000.
- BARRUCAND Marianne, L'Architecture de la Qasba de Moulay Ismail à Meknès, in Etudes et Travaux d'Archéologie Marocaine, T VI, 1976 et Les Editions Maghrébines, Casablanca 1980
- BARRUCAND Marianne, Urbanisme princier en islam, Meknès et les villes royales islamiques poste médiévales, Geuthner, Paris 1955
- BENZIDANE Moulay Slama, Meknès cette ville que j'aime, in Revue Maroc Europe, n° 12, Ed. La Porte, Rabat 1999-2000
- CHAMPION Pierre , Les villes d'art célèbres : Tanger, Fès et Meknès, Librairie Renouard . H., Lourens , Paris 1924
- Dominique et Janine Sourdel, Dictionnaire historique de l'islam, Ed. Puf, Paris 1996
- FASSI Driss, Géographie physique de la région de Meknès, in Revue de géographie du Maroc, n° 1, 1977
- MIEGE Jean Louis, Une description de Meknès en 1704, in Revue Maroc Europe, n° 12, Editions La Porte, Rabat 1999 / 2000
- TERRASSE Henri, Villes impériales du Maroc, Editions, B.Arthaud, Grenoble 1937

مدينة وجدة: العاصمة المهمّشة

ذة. مارية دادي
كلية الآداب - وجدة

مقدمة

أسس زيري بن عطية المغراوي، مدينة وجدة سنة 384هـ/994 م، واتخذ لها كل المقومات الضرورية لكي تكون " قاعدته ودار ملكه"، و" يسكنها بأهله وحشمه " ويعدها "معتصما" و" تكون ثغرا للعمالتين" كما جاء في نص ابن خلدون.¹

فهل حققت مدينة وجدة طموحات زيري بن عطية، وهل قامت بدور العاصمة للدولة المغراوية؟ ذاك ما سنتعرف عليه من خلال جوابنا عن الأسئلة التالية:

1- الأهداف الموضوعية لتأسيس مدينة وجدة

2- هل روعيت في تأسيس مدينة وجدة المعايير والتوقعات المطلوبة في تأسيس المدن

الإسلامية، من حيث العمارة وتخطيط المدينة، والمؤسسات؟

3- هل سكن زيري بن عطية مدينة وجدة بصفته عاصمة لدولته؟

4- هل كانت مدينة وجدة عاصمة للإمارة المغراوية فعلا ؟

¹ - ابن خلدون عبد الرحمان ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1981م ، ط.1 ، ج. 15/7 .

1- الأهداف الموضوعية لتأسيس مدينة وجدة

من خلال استقراء المصادر التي تحدثت عن تأسيس زيري لمدينة وجدة، خاصة المصادر الأمهات، يبدو أن تأسيس زيري بن عطية لمدينة وجدة لم يكن هدفا في حد ذاته، بل كان يدخل في إطار المخطط العام الذي رسمه لنفسه، ووسيلة تساعد على تنفيذ مشروعه، لذلك هيا جميع الأسباب لنجاح هذا المشروع، ومن ذلك السيطرة على مدينة فاس أولا، ثم إقصاء بني يفرن أعدائه إلى نواحي سلا، ثم سيطرته على جميع المناطق الشرقية إلى الزاب في المغرب الأوسط. فكان تأسيس مدينة وجدة، أمرا ضروريا لتتويج ما وصل إليه من قوة سلطان، وهو ما نستشفه من قول ابن أبي زرع: " وقوي أمر زيري بن عطية بالمغرب، ولم يبق له منازع، وهابته الملوك... فبنى مدينة وجدة "¹. فإذا كانت فكرة البناء ناتجة عن اعتداد زيري بنفسه بعد أن اتسع ملكه، وانبسط سلطانه، واشتدت شوكته²، وضرورة ملحة أملتها ظروفه السياسية، فإن البناء نفسه كان لتحقيق عدة أهداف، أهمها هدفان: الأول دفاعي تحصيني، والثاني استراتيجي.

أ- الهدف الدفاعي : وذلك من أجل الالتجاء إليها والاعتصام بها، في حالة ما إذا وقع هجوم على زيري بن عطية وأتباعه، سواء من الشمال من طرف المنصور بن أبي عامر، الذي لم يستسغ استقلال زيري بأمر المغرب. أو من الشرق، سواء بإيعاز من الدولة الفاطمية وحلفائها الصنهاجيين الذين ما فتئوا يوالون هجوماتهم على المغرب الأقصى ومدينة فاس، أو من قبل أبي البهار، في حالة ما إذا حاول أن يستعيد أرضه التي كان قد استولى عليها زيري بن عطية. وهذا ما يلخصه قول ابن خلدون عن مدينة وجدة: "وأعدها

¹ - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 105.

² - ابن خلدون، تاريخ، 43/7.

معتمصا"¹، بحيث يمكنه، من خلال مدينة وجدة، ردّ أي هجوم يتوقع من المنازعين والمشاغبين.

لقد استوفت مدينة وجدة شروط المعتمص والمعتقل، من أسوار عالية، وقصبة وأبواب تغلق في حالة أي هجوم خارجي. وهو ما لخصه ابن أبي زرع بقوله: "وشيد سورها وقصبتها، وركب أبوابها"²، بالإضافة إلى وجود عساكر، وحشم، ووالي، وذخيرة، وكلها مصطلحات تليق بالدور العسكري الذي أنشئت من أجله المدينة، وتعطيها صفة "المعتقل" و"المعتمص".

ب- الهدف الاستراتيجي : ولتحقيق هذا الهدف، اختار زيري لمدينة وجدة أن تكون "واسطة البلاد"³ لكونه في تلك الفترة، وهي سنة 384 هـ/994م كان يملك ما بين السوس الأقصى إلى الزاب.⁴ ونظرا لهذه الأهمية الاستراتيجية فقد استعمل عليها ذويه من قبيلة مغراوة التي كانت ضاربة بأرض المغرب الأوسط⁵ - من اشلف إلى تلمسان وإلى جبل وجدة⁶ - والتي كانت تشكل عصبه الذي يحمي به. كما أنه أسكنها حشمة كما يذكر ذلك ابن خلدون، ولا يخفى ما لكلمة 'حشم'⁷ من عصبية وتقوية. كما أنه نقل إليها أهله وأنزلهم بها، لأنه كان يحس أنها "قاعدته ودار ملكه"⁸ بدلا من عاصمته فاس التي كان لا يأمن شرّها. فرغم اتخاذها عاصمة له في أول أمره، فإنه لم يسكنها بأهله، بل - وكما قال

¹ - نفسه .

² - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 105.

³ - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 105 .

⁴ - ابن خلدون، تاريخ، 43/7.

⁵ - نفسه، 33/7.

⁶ - جبل وجدة يسمى كذلك جبل مديونة نسبة إلى قبيلتها، ويقع جنوب مدينة وجدة. انظر: ابن خلدون، تاريخ، 165/6.

⁷ - الحشم: تستعمل كلمة الحشم غالبا مرادفة لكلمة الخدم، فنقول الخدم والحشم، غير أن الحشم - غالبا - يحيطون بعلية القوم، كالملوك والأمراء، قال الزمخشري: "حشمه، أي الذين يغضبون له أو يستحيون منه". انظر: الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1979 م، ص. 84.

⁸ - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 105.

ابن أبي زرع- " أسكن قبيله في أنحائها وبالقرب منها، في قياطينهم "1.

2- هل روعيت في تأسيس مدينة وجدة المعايير والتوقعات المطلوبة في تأسيس

المدن الإسلامية، من حيث العمارة وتخطيط المدينة، والمؤسسات؟

- من حيث الموقع والموضع ، فقد بما قالت الحكماء: "أحسن مواضع المدن أن تجتمع فيها خمسة أشياء، وهي: النهر الجاري، والمحرق الطيب، والحطب القريب، والصور الحصين، والسلطان"2.

أما ابن خلدون فيرى أن من شروط اختيار المدن، أن تحاط بسور يدفع المضار، أن تحتل موضعاً ممتنعاً من الأمكنة على هضبة أو على نهر أو باستدارة بحر، مع مراعاة اتخاذ الموقع الذي يتمتع بطيب الهواء للسلامة من الأمراض، وسهولة جلب الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة، طيب المراعي لسائمتهم، ومراعاة المزارع فإن الزروع هي الأقوات.

ويرى ابن الأزرقي في كتابه بدائع السلك في طبائع الملك، الذي يُعَدُّ أول من تناول مقدمة ابن خلدون بالشرح، أن ما يجب مراعاته في أوضاع المدن، أصلاً من مهمان: دفع المضار، وجلب المنافع.

لقد اختار زيري لعاصمته مكاناً منبسطة وسط السهول، يتميز بكل الخصائص الضرورية في تأسيس المدن الإسلامية والتي ذكرناها سابقاً:

- من الناحية الطبيعية، فهي تتمتع بكل المقومات الضرورية لبناء المدينة، خاصة المياه الجارية والأراضي الخصبة، والغابات القريبة، ويلخص ذلك صاحب الاستبصار بقوله عن

¹ - نفسه، ص. 103.

² - أنظر: ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 33.

مدينة وجدة إنها "كثيرة البساتين والجنات والمزروعات، والمياه والعيون، طيبة الهواء، جيدة الغذاء...، ومراعيها أنجع المراعي وأصلحها للسائمة"¹.

- من الناحية الاستراتيجية، فهي "واسطة بلاده"² على حدّ قول ابن أبي زرع، وتعبّر في اختيار موقعها على المساحة الشاسعة التي امتد إليها حكم زيري، شرقي وغربي مدينة وجدة. بحيث يمكنه أن يراقب منها ما يجري في المغرب الأوسط وما يقع في الشمال وما يدور في الجنوب. فهي قريبة من البحر، ولا يخفى علينا ما للبحر- بالإضافة إلى الأهمية الاقتصادية- من أهمية في مراقبة ما يجري في الضفة الشمالية. ويؤكد ابن خلدون هذه الأهمية الاستراتيجية بقوله عن وجدة إنها: " ثغر للعمالتين"³، ولا يخفى ما لكلمة ثغر من مدلول استراتيجي مهم.

- من الناحية البشرية، فهي بعيدة عن قبائل بني يفرن المعادية، وقرية من موطن الأمير الأصلي، وعصبته القبلية مغراوة، حيث يمكنه أن يُكوّن معها سدا منيعا في وجه تسرب القبائل الصنهاجية نحو الغرب.

- من الناحية الاقتصادية، فقد ذكر البكري أن مدينة وجدة تقع " على طريق المارة والصادرة، من بلاد المشرق إلى سجلماسة، وغيرها من بلاد المغرب"⁴، كطريق غربي نحو تازة وفاس، وطريق شمالي نحو مليلية والأندلس، وطريق جنوبي نحو سجلماسة والسودان، وطريق شمالي شرقي نحو تاجريت " وهو ساحل مدينة وجدة " ⁵ وكذلك محط السفن ومقصد القوافل.

- من الناحية السياسية، فهي رمز لنفوذ السياسي واستقلاله بحكم المغرب.

¹ - مجهول (أبو عبد الله الحفيد)، الاستبصار، ص. 607.

² - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 105.

³ - ابن خلدون، تاريخ، 43/7.

⁴ - البكري، المغرب، ص. 87-88.

⁵ - مجهول (أبو عبد الله الحفيد)، الاستبصار، ص. 127.

لذلك قام زيري بعد تأسيس مدينة وجدة " فشيّد سورها وقصبتها، وركب أبوابها، وسكنها بأهله وحشمه، ونقل إليها أمواله وذخائره"¹.

- أما من حيث تخطيط المدينة والمؤسسات: فقد ذكر المختصون في دراسة تخطيط المدن الإسلامية أن أول ما يبنى في المدينة الإسلامية المسجد الجامع ويكون في وسطها، ويبنى حوله مبان رئيسيان هما دار الإمارة وبيت المال. وبجوار المسجد كانت تخصص أرض للسوق تترك فضاء كما في المدينة المنورة. بعد ذلك كانت تخط أراض بينها شوارع رئيسية للقبائل المختلفة ويترك تخطيط هذه الأراضي للقبائل كما هو الحال في المدينة المنورة. في وسط كل من تلك الخطط كان مسجد يسمى مسجد الصلوات الخمس، حيث يصلي فيه الناس ويجتمعون يوم الجمعة في المسجد الجامع.

فكان تخطيط مدينة وجدة يشتمل على كل الوحدات المعمارية التي تميزت بها المدينة الإسلامية من مسجد جامع وسط المدينة وبجانبه دار الإمارة والمؤسسات الإدارية والسوق، كما قسمت باقي المساحة بين القبائل فاستقرت كل واحدة بناحية حيث تكونت المدينة في بداياتها من أربعة أحياء رئيسة هي أهل وجدة، أولاد عمران، أولاد عيسى وأولاد الكاظمي²، قبل أن تضاف إليها أخرى أو تنبثق من بعضها. وحصنت المدينة بسور وضرب عليها خندقاً من الخارج.

وبذلك تكون مدينة وجدة قد اشتملت على كل الأشياء الضرورية لتأسيس المدن الإسلامية كما ذكر الحكماء من النهر الجاري، والمحراث الطيب، والحطب القريب، والسور

¹ - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 105.

² - حول أحياء مدينة وجدة وسكانها، انظر: مارية داداي، تاريخ مدينة وجدة من التأسيس إلى سنة 1830، مطبعة شمس، وجدة، 2004، ج1، ص، 201.

الحصين، إلا أنه بقي لها شيء أساسي هو السلطان؟¹ وهو ما سنتعرف عليه من خلال النقطة التالية:

3- هل سكن زيري بن عطية مدينة وجدة بصفتها عاصمة لدولته؟

من خلال مقارنة النصوص التي تحدثت عن بناء مدينة وجدة نستنتج أن زيري بن عطية أقام بمدينة وجدة بعد تأسيسها مباشرة، ولمدة وجيزة، قبل سنة 386هـ/996م، حيث كان المغرب ينعم ببعض الاستقرار في ظل حكمه، ويخيم عليه نوع من الهدوء، وقد ذكر ابن أبي زرع، أنه بعد تأسيس مدينة وجدة سنة 384هـ/994م " لم يزل زيري بن عطية في علو سلطان وارتفاع شأن إلى سنة 386هـ، ففسد ما بينه وبين المنصور"² وربما كان سَكَنُ زيري بن عطية مدينة وجدة - بالإضافة إلى عوامل أخرى تتعلق بعلاقته بالدولة العامية- هو ما أثار حفيظة المنصور بن أبي عامر، وجعله يتصدى له، لأن بناء عاصمة جديدة وتحصينها وسكناها، له أكثر من دلالة، فهو يعني الاستقلال التام عن التبعية للأندلس. بحيث نرى أنه في سنة 381 هـ/991م ، لما كتب المنصور بن أبي عامر لزيري بن عطية " بتجديد عهده على المغرب ...، أقام زيري بن عطية بمدينة فاس"³ ولما عزم زيري على الثورة على الأمويين والاستقلال بحكم المغرب، بنى عاصمة جديدة هي وجدة، وسكنها بعيدا عن العاصمة فاس التي كان يسكنها من يدين بولائه للأمويين. وهذا ما رمى إليه الناصري بقوله وهو يتحدث عن زيري بن عطية: " فسدت همته إلى بناء مدينة تكون خاصة به وبقومه وأرباب دولته، فبنى مدينة وجدة"⁴.

¹ - أنظر: ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 33.

² - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 105.

³ - ابن عذاري، البيان، 252/1 .

⁴ - الناصري، الاستقصا، 213/1.

حقيقة أن ابن أبي زرع، أكد على سكنى زيري بن عطية مع أهله مدينة وجدة، ولكن ذلك كان قبل سنة 386 هـ/996م أي مباشرة بعد بنائها سنة 384 هـ/994م. وهو ما يُفند ما ذكره أحد الباحثين من أن بناء مدينة وجدة استمر مدة سنتين (من سنة 384 هـ/994م إلى سنة 386 هـ/996م)، وأن زيري انتقل إليها بعد ذلك وسكنها بأهله وحشمه.¹

فبالنسبة لنص ابن أبي زرع نجده يقول "وكان اختطاط زيري بن عطية لمدينة وجدة في شهر رجب الفرد سنة أربع وثمانين وثلاثمائة"²، ويقول الزمخشري حول لفظ "اختط": اختط لنفسه داراً: "إذا ضرب لها حدوداً ليعلم أنّها له"³، ويؤكد ذلك ابن خلدون الذي يقول: "واختط مدينة وجدة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وأنزلها عساكره"⁴ أي مباشرة بعد الاختطاط، وأنزلها عساكره، ومعناه، أن الاختطاط وإنزال العساكر لم يتعد سنة 384 هـ/994م. هذا من حيث النص.

أما من حيث سياق الأحداث: فإن سنة 386 هـ/996م لا يمكن أن تكون تاريخاً لانتقال زيري بن عطية بأهله إلى مدينة وجدة، لأن هذه السنة بالذات عرفت اندلاع الحرب بين زيري بن عطية والمنصور بن أبي عامر، وأن المعارك بمختلف مراحلها دارت في شمال المغرب، وخاصة في منطقة الهبط وطنجة، بعيداً عن مدينة وجدة، ولم تنته الحرب إلا في أواخر سنة 387 هـ/997م، أو 388 هـ/998م على قول آخر.⁵

¹ - محمد عبد الله عنان في كتابه، دولة الإسلام في الأندلس، ص. 495، وأحال على الناصري في كتابه الاستقصا، وليس في كلام الناصري ما يفيد ذلك، حيث يؤكد: "فبنى مدينة وجدة... وكان اختطاطه إياها في شهر رجب سنة 384 هـ. ولم يزل زيري بن عطية في علو سلطان وارتفاع شأن إلى سنة 386 هـ، ثم حدث ما نذكره "أنظر: الناصري، الاستقصا، 213/1.

² - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 105.

³ - الزمخشري، أساس البلاغة، مصدر سابق، حرف الخاء.

⁴ - ابن خلدون، تاريخه، 43/7.

⁵ - سنة 387 هـ حسب ابن أبي زرع في الأنيس، ص. 106، وسنة 388 هـ، حسب ابن خلدون في تاريخه، 45/7.

وخلصة القول، فإذا كان زيري بن عطية قد استقر في مدينة وجدة، فإن ذلك كان لمدة وجيزة أي بين سنتي 384 هـ 386 هـ.

4- هل كانت مدينة وجدة عاصمة للإمارة المغراوية فعلا ؟

لما بنى زيري بن عطية المغراوي، مدينة وجدة سنة 384 هـ/994م، اتخذ لها كل المقومات الضرورية لكي تكون "قاعدته ودار ملكه"¹ من سور وقصبة وأبواب وحشم وذخائر. غير أن تتبع الأحداث السياسية للدولة المغراوية في تلك الفترة، يبيّن أن الظروف حالت دون أن تقوم هذه المدينة بمهمة "دار الملك" أي عاصمة للدولة.²

فدار الملك عادة ما تطلق على المدينة التي يوجد بها الملك أو الخليفة أو من يقوم مقامهما، ومدينة وجدة، إن كان زيري قد أسسها لكي يتخذها "قاعدته ودار ملكه"³ على حدّ قول ابن أبي زرع، فإن جل مبادراته السياسية كانت تنطلق من فاس، ولم تكن له وجدة بدار ملك حتى في فتراته العصيبة.⁴ ونفهم من نسق الأحداث أنه بعد تأسيس مدينة وجدة، وبعد تغلب عبد الملك المظفر على زيري بن عطية - وبعدما فرّ زيري أمام عساكر هذا الأخير، لم يتوجه إلى مدينة وجدة، بل فرّ إلى الصحراء وأسلم جميع أعماله وبطيعة الحال مدينة وجدة من بينهم.⁵

¹ - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 105.

² - عصم : العصمة في كلام العرب: المنع، وعصم الله عبده، أي يعصمه مما يوقه. عصمه يعصمه عصما منعه ووقاه، وفي القرآن : "لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم"، واعتصم فلان بالله، إذا امتنع به، والعصمة الحفظ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، م، س، مجلد، 12، ص: 403-404. وفي القاموس المحيط جاء: عصم يغصم: اكتسب ومنع ووقى، عصمه الطعام: منعه من الجوع، والعاصمة : المدينة. انظر: الطاهر أحمد الزاوي، دار الفكر، ط: 3، المجلد: 3، ص: 241-242.

³ - نفسه.

⁴ - عندما واجه زيري بن عطية واضحا الفتى، كانت انطلاقته من فاس، بعدما التحقت به قبائل زناتة من المغربين الأقصى والأوسط. ولما انهزم قصد فاسا سائلا أهلها أبناءه وعياله، وبدلا من أن يتجه إلى مدينة وجدة- التي يبدو أنها كانت غير مستعدة لاستقباله- فضل عنها اللجوء إلى الصحراء.

⁵ - ابن خلدون، تاريخ، 45/7.

وبذلك نرى أن مدينة وجدة لم تقم بوظيفتها، لا كـ " دار للملك " على رأي بن أبي زرع، وينطلق منها زيري بن عطية بجيوشه لمواجهة جيش الأندلس ؛ كما أنها لم تقم بمهمتها " كمعتصم " - على رأي ابن خلدون - فتستقبله عند الحاجة للاعتصام بها، خاصة بعد أن أغلق أهل فاس أبواب مدينتهم في وجهه.¹

ولما هلك زيري بن عطية سنة 391هـ/1000م، وتولى بعده ابنه المعز بن زيري وزال ما كان بينه وبين المنصور بن أبي عامر من هتات،² أقره على حكم المغرب،³ (ماعدا سجلماسة) فاستقر في مدينة فاس وظل بها إلى حين وفاته سنة 422 هـ/ أبريل 1031 م⁴، دون أن تسجل المصادر أي نزول له بمدينة وجدة.⁵

وبعد تولية ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية خلفا له سنة 422 هـ/أبريل 1031م، استوطن مدينة فاس ولم ينزل وجدة إلا مطرودا من طرف ابن عمه تميم بن زيري سنة 424 هـ وعلى أساس أن " مدينة وجدة من أحواز تلمسان"⁶، وأقام بها حوالي سنة دون أن يتمكن من لم عصبيته حوله، بل " تفرقت عنه جيوشه وتمزقت جموعه "⁷، ولما عاود حمامة الكرة على مدينة فاس ودخلها سنة 429هـ/1037م مكث بها إحدى عشرة سنة، إلى أن وافته المنية بها سنة 440هـ/1048م دون أن تطأ رجله مدينة وجدة. وبعده تولى ابنه حمامة بن المعز فاستقر

¹ - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 106 ؛ انظر كذلك، مجهول، أخبار البربر، ص. 165 .

² - ذكر الناصري: أن المعز بن زيري قام بمحشد كل الخيول التي كان يتوفر عليها وعددها 900 فرسا إلى بلاط العامريين بقرطبة " ولم تصل من المغرب إلى الأندلس هدية أعظم منها". الاستقصا، 219/1.

³ - ماعدا سجلماسة التي أسندها واضحا مولى المنصور أثناء ولايته على المغرب إلى واندوين بن خزرون.

⁴ - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 108. إلا أن ابن خلدون (ج.7، ص.47) يجعل وفاة المعز بن زيري سنة 417 هـ/1027م، ويبدو أن ابن أبي زرع، أكثر دقة في تاريخه.

⁵ - كما أن التناغم السياسي الذي جمع المعز والمنصور على حرب النصارى بالأندلس، وكذلك العلاقة الطيبة التي تميز بها عهد عبد الملك وبني زيري وكذا عهد أخيه عبد الرحمن من بعده، قد أغناهم عن سكنى وجدة أو حتى زيارتها. انظر: ابن خلدون تاريخ، م، س، 47/7.

⁶ - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 109 ؛ وابن خلدون، تاريخ، 136/7.

⁷ - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 110.

هو كذلك بمدينة فاس بل: " في أيامه عظمت فاس وعمرت وكثرت أرباضها وقصدها الناس والتجار"¹ دون أن ييדי أدنى اهتمام بعاصمتهم الأولى وجدة، وكذلك كان شأن الأمراء الزيريين من بعده² إلى أن انتهت دولتهم سنة 462هـ/1070م في عهد تميم بن معنصر حيث "سلط الله عليهم المرابطين، فأزالوا ملكهم، وشتتوا جمعهم، وقتلوه، وأخرجوهم عن بلاد المغرب بأسره"³، فكانت نهاية دولة مغراوة من المغرب.

ولم يكتف الأمراء الزيريون بالعزوف عن سكنى عاصمتهم وجدة بل اتخذها بعضهم مأوى للهاربين يفرّون إليه كلما شعروا بخطر يدهمهم مثل حمامة بن المعز المغراوي سنة 422هـ/1031م كما رأينا ذلك سابقا، وكذلك كان شأن مدينة وجدة حتى بعد ذلك حيث هرب إليها زيدان ابن أحمد المنصور⁴ بعد انهزامه أمام أخيه أبي فارس، كما اتخذها البعض الآخر سجنا يبعثون إليه بكل من هدد أمنهم أو أقلق راحتهم. ومنهم: أبو الحسن المريني الذي لما خرج عليه ولده أبو عبد الرحمن وتقبض عليه سجنه بمدينة وجدة مدة أربع سنوات.⁵ بل إن بعض السلاطين أقطعوا مدينة وجدة لبعض الأشخاص مكافأة لهم على صنيعهم معهم مثلما فعل أبو الحسن المريني مع أبناء الأمير أبي عبد الله ابن أبي بكر في إفريقية لما قدموا له البيعة.⁶

البيعة.⁶

¹ - ابن أبي زرع، الأنيس،

² - منهم: دوناس بن حمامة بن المعز، ابنه الفتوح، ثم ابن عم إبيه معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن زيري، ثم تميم بن معنصر.

³ - ابن أبي زرع، الأنيس، ص. 114، وكذلك: مجهول، أخبار البربر، ص. 180.

⁴ - بوبع بعد وفاة والده بفاس يوم الإثنين 16 ربيع الأول 1012هـ/25 غشت 1603م، فانخرق عن طاعته أهل مراكش وبايعوا أخاه أبا فارس. فخاض ضده عدة حروب. ولما انهزم أخيرا فرّ "حتى وصل وجدة"⁴، فأقام بها مدة، ثم رجع لسجلماسة ومنها إلى درعة، ثم مراكش فنادى أهلها بنصرته.

انظر بقية أخباره عند: ابن خلدون، تاريخ، 343/7؛ الناصري، الاستقصا، 133/3-134.

⁵ - أبو عبد الرحمن بن أبي الحسن المريني الذي لما خرج على والده وتقبض عليه سجنه بمدينة وجدة مدة 4 سنوات ولم يُنْجِه من حبسه إلا وثوبه بالسجان وقتله له، فاتصل الخير بالسلطان أبي الحسن، فبعث له حاجبه علان بن محمد فقتله، وذلك سنة 742هـ/1341م. أنظر: مارية دادتي، تاريخ مدينة وجدة من التأسيس إلى سنة 1830، مطبعة شمس، وجدة، 2004، ج/2، ص، 297.

⁶ - لما قضى أبو الحسن على التمرد بين أبنائه وأعوامهم، وقرله أصهاره الظروف لغزو إفريقية، فانطلق إليها من تلمسان سنة

خلاصة

رأينا سابقا زيري بن عطية مستقرا في مدينة فاس في فترة الهدوء السياسي، ومشردا في الصحراء أو في المغرب الأوسط في فترة التمرد. وكما أن عقبه من بعده استقروا جميعا في مدينة فاس واتخذوها "دار ملكهم"، ولم يخلوا بمدينة وجدة إلا مضطرين حين طردوا من مدينة فاس، وأصبح استقرارهم بها مستحيلا. ورأينا أهلها وحشمه قد استلمهم هم كذلك من مدينة فاس، بعد أن رجع إليها مفلولا، بعد انهزامه أمام جيوش الأندلس سنة 387 هـ/997م. كما أن مدينة وجدة لم تقم بدورها كـ "معتصم" يلجأ إليه الأمراء الزيريون المغراويون في حالة الضرورة، وحين اضطر أحدهم للاعتصام بها فإنه تفرقت عنه جيوشه، وتشتت جموعه واضطر للخروج منها إلى المغرب الأوسط، كما أنها لم تقم بدور 'الثغر للعمالتين' المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، بحيث وجدناها قد أصبحت من "أحواز تلمسان.

وبذلك نخلص إلى أن مدينة وجدة التي أسسها زيري بن عطية سنة 384 هـ/994م لتكون "قاعدته ودار ملكه"، و"يسكنها بأهله وحشمه" ويعدها "معتصما" و"تكون ثغرا للعمالتين"؛ لم يكتب لها أن تكون كذلك. فدورها من الناحية السياسية كان ضعيفا ودون ما انتظره منها زيري بن عطية وقبيله مغراوة. فهي لم تقم بوظيفة العاصمة للدولة في أي فترة من فترات حكمها، ولم تكن 'دار ملك' لأي أمير من أمرائها، منذ تأسيسها سنة 384 هـ/994م، إلى نهاية الدولة المغراوية سنة 462 هـ/1070م.

وبناء علما سبق، يحق لنا أن نطلق على مدينة وجدة في الفترة المذكورة: العاصمة المهمشة.

748/1347م بعد أن ولي على المغرب الأوسط ابنه أبا عنان. ولما أشرف على قسنطينة، خرجوا إليه، فبايعوه، فقبل بيعتهم، وصرفهم إلى المغرب. ومكافأة لهم على صنعهم "أنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها". انظر الناصري، الاستقصا، ص: 155/3

تطوان عاصمة متوسطة

ذ. امحمد بن عبود

كلية الآداب. تطوان

تعتبر تطوان مدينة مغربية أندلسية مطلة على البحر الأبيض المتوسط وتنفرد بموقعها الجغرافي الذي يجمع بين قربه من البحر ووجوده بجبال الريف. علاوة على هذا تميزت هذه المدينة بثقافتها العربية الإسلامية العريقة.

عرف تاريخ تطوان السياسي ازدهارا في بعض مراحل وأزمات في مراحل أخرى. وكانت الهجرة إلى تطوان من بين العوامل التي أغنت تاريخ هذه المدينة الاجتماعي نذكر منها هجرة الأندلسيين وهجرة الفاسيين وهجرة الجزائريين وهجرة اليهود وغيرهم.

تميز تاريخ تطوان السياسي باللامركزية في بعض المراحل التاريخية وتميز بالتبعية للحكم المخزني المركزي منذ القرن الثامن عشر. لقد ساعد موقع تطوان الاستراتيجي على الدفاع عن المدينة من جهة كما تمكنت هذه المدينة من ربط علاقات خارجية متطورة مع المدن الداخلية وعلى رأسها فاس والمشرق العربي والدول الأوربية بفضل مينائها الذي عرف رواجاً من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر.

وكانت تطوان عاصمة متوسطة بمفهوم خاص سوف يتضح من خلال هذا العرض، لأنها تحولت من مدينة . دولة إلى عاصمة إقليمية ثم إلى عاصمة منطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب، وهي وضعية فريدة.

تطوان في البحث التاريخي

عرفت تطوان اهتمام الباحثين والمؤرخين المغاربة والأجانب مما يساعدنا على تكوين صورة دقيقة لتاريخها بأبعاده المتعددة. ويمكن تصنيف أهم المؤلفات العربية حول تاريخ تطوان إلى الأصناف التالية:

أولاً، المؤلفات التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين مثل تاريخ السكيرج وأحمد الرهوني ومحمد داود، ويمكن مقارنة تاريخ داود ببعض التأليف حول تواريخ مدن مغربية أخرى كمؤلفات ابن زيدان والناصري. إلا أن كل تأليف يطبعه طابع خاص به. فبينما تميز كتاب "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين" في أجزائه العشرة على التقاليد الاجتماعية واللهجة التطوانية وفهارس علماء تطوان وفاس، ركز محمد داود في كتابه "تاريخ تطوان" الذي يضم حوالي 15 جزء على التاريخ السياسي وطبعته روح وطنية قوية كما نقل مئات الوثائق الخاصة والمخزنية المرتبطة بأحداث كبرى كحرب تطوان سنة 1860.

ثانياً، لقد نظمت مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بكلية الآداب بتطوان (جامعة عبد المالك السعدي) سلسلة من الندوات حول تاريخ تطوان خلال القرون الخمس الأخيرة طبعت أعمال بعضها ويوجد البعض الآخر قيد النشر وهي كالتالي:

1. **تطوان في عهد الحماية (1912 . 1956)**، تطوان، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، 1992، ص. 309.
2. **تطوان قبل الحماية (1860 . 1912)**، تطوان، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، 1994، ص. 1-400.
3. **تطوان في القرن الثامن عشر**، تطوان، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، 1994، ص. 324.
4. **تطوان خلال القرنين 16 و 17**، تطوان، مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، 1996، ص. 565.

ولقد جمعنا أعمال الندوات المذكورة أعلاه في قرص مدمج، يوزع ضمن أقراص جمعية تطاون أسمير.

5. تطوان والتوثيق من ق. 16 إلى ق. 20، تطوان، منشورات كلية الآداب بتطوان،

2007

6. تطوان والتطور العمراني والمعماري من ق. 16 إلى ق. 20. (قيد الطبع)

7. المجتمع التطواني من ق. 16 إلى ق. 20. (قيد الطبع).

8. تطوان والسياسة والثقافة من ق. 16 إلى ق. 20.

ثالثا، إن بعض الجمعيات غير الحكومية تصدر منشورات هامة حول تاريخ تطوان. لقد أصدرت جمعية تطاون أسمير أكثر من 90 عنوانا حول تطوان، نذكر منها بعض الكتب التاريخية التي حققها الدكتور جعفر ابن الحاج السلمي والأستاذة حسناء داود والأستاذ أحمد المرير مثل 6 أجزاء من كتاب "عمدة الراوين لتاريخ تطاوين" لأحمد الرهوني و6 أجزاء من كتاب "النعيم المقيم" لمحمد المرير وكتاب "على رأس الأربعين" لمحمد داود. كما صدرت ضمن هذه المنشورات كتب بالفرنسية والإسبانية حول تاريخ تطوان منها ما يلي:

1. Tétouan, Capitale méditerranéenne (Sous la direction de M'hammad Benaboud, Rabat, Publications Association Tetuan Asmir, 2004.

2. Tétouan à travers les siècles, par Jean Louis Miège, Tétouan, Association Tetouan Asmir, 1996.

3. La Frontera sur de Al- Andalus, par Gil Rodolfo Grimau, Tánger, Asociación Tetouan Asmir, 2002

ونذكر من بين منشورات هذه الجمعية كتباً بالعربية وهي كالتالي:

1. تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية، لجان لوي مياج وأحمد بن عبود ونادية

الرزيني (تعريب مصطفى غطيس).

2. الزاوية، للتهامي الوزاني، تحقيق عبد العزيز السعود.

ويمكن الاطلاع على اللائحة الكاملة لهذه المنشورات في موقع جمعية تطاون أسمىر في الإنترنت (www.tetouan.asmir.org).

رابعاً، هناك عدد من الباحثين الذين نشروا دراسات هامة حول تطاون نذكر منهم الأستاذ محمد ابن عزوز حكيم الذي نشر دراسات متعددة، ويوسف احناة الذي حقق تاريخ السكيج، علاوة على بعض الدراسات في مجال التراث الثقافي لمدينة تطاون العتيقة بالعربية والإسبانية والفرنسية نذكر منها:

1. Tetuán, Guía de Arquitectura, (Ed.por Ramón de Torres), Sevilla y Tetuán, Consejería de Obras Públicas y Transporte de la Junta de Andalucía y Asociación Tetuán Asmir, 2001.

2. Rehabilitacion e intervención en las ciudades históricas de Andalucía y el norte de Marruecos (ed.por Ramón de Torres), Sevilla – Tetuán, 2004.

3. Le Maroc Andalou: la découverte d'un art de vivre, (Ed. par Eva Schubert), Madrid, Musée Sans Frontières, 2002.

4. Jerez y Tetuán, Ma. Dolores López Enamorado y Antonio Reyes Ruiz (eds.), Jerez, Instituto de Promoción y Desarrollo de la Ciudad de Jerez, 2006.

5. تطوان وسياسة التنمية الاقتصادية وتدير التراث الثقافي، للدكتور محمد بن

عبود، الرباط، 2009.

إن لائحة المصادر والمراجع لتاريخ تطاون غنية ومتنوعة كما درس أصحابها هذا التاريخ بأبعاده المتعددة.

I. تطور تطوان العاصمة

نشأت تطوان من جديد عندما هاجر إليها القائد الغرناطي علي المنظري في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وأعاد بناءها في شكل قلعة. فالمصادر الأولى تشير إلى "قلعة تطاون". واستقر المنظري بهذه المدينة صحبة حوالي مئاة من الرجال والنساء. فكان للتأسيس الأندلسي لتطوان آثار عميقة في تطورها الحضري والمدني.

هناك عدد من المآثر التاريخية التي يعود تاريخ بناءها إلى الحقبة الأولى نذكر منها قصبة المنظري والأسوار والأبراج والمحكمة وهي عبارة عن قوس مبني بالآجور وكل هذه المعالم تطبعها الهندسة المعمارية العسكرية الغرناطية التي كانت تعتمد المواد المحلية للبناء مثل الحجر والآجور والجير. ونذكر من بين المآثر التاريخية بالمدينة جامع القصبة ومنزل المنظري.

وتعتبر السيدة الحرة من بين الشخصيات التاريخية التي تحولت إلى أسطورة (وهي بنت علي بن راشد صاحب شفشاون) وزوجة علي المنظري التي حكمت تطوان بعد وفاة زوجها وقادت بعض المعارك البحرية قبل عودتها إلى شفشاون حيث توفيت.

لقد نشأت تطوان كقلعة بجهاز إداري في القصبة داخل أسوار المدينة. وتوفرت لها محكمة لضمان العدالة. وشكل العنصر الأندلسي نواة المجتمع التطواني ثم استقبلت المدينة بعد ذلك هجرة العنصر الجبلي والريفي من المناطق المجاورة.

وكان الجهاد البحري والفلاحة من أهم الموارد الاقتصادية للمدينة. إن حلم الأندلسيين الذين استقروا في تطوان كان هو العودة إلى الأندلس. وكان لميناء تطوان دور هام في ربط علاقات المدينة التجارية على صعيد البحر الأبيض المتوسط منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وكان النظام السياسي لتطوان مبنيا على الحكم العسكري لأن مؤسس المدينة كان قائدا عسكريا في الأصل. والجهاد كان من بين أهداف النظام السياسي منذ البداية. فالاحتلال البرتغالي لأهم المدن الساحلية كسبتة وطنجة وأصيلا كان يهدد استقلال شمال المغرب عموما. ومازالت المقبرة الإسلامية تحتفظ بمقابر المجاهدين الغرناطيين.

ولم تكن مدينة تطوان مدينة ثقافية في بدايتها، بل غاب هذا العنصر خلال القرن السادس عشر. إلا أن نفوذ المنظري السياسي والعسكري لم ينحصر في قلعة تطاون بل امتد

برا في منطقة الشمال. وكانت تطوان في عهد المنظري تتوفر على جميع مكونات المدينة .
الدولة في وضعية التجزئة السياسية وغياب الدولة المغربية الموحدة.

II. تطوان: المدينة . الدولة

ازدهرت تطوان في عهد النقيس بصفته مدينة . دولة، خصوصا في عهد المقدم أحمد النقيس. وتميز حكم آل النقيس، وأصلهم من قبيلة بني يدر، بترسيخ الدولة . المدينة مع محافظتهم على الإرث الأندلسي الذي ازداد رسوخا طوال القرن السابع عشر نظرا لاستمرارية الخطر الإيبيري ونظرا لاستقبال المهاجرين الأندلسيين الوافدين على تطوان في طريقهم إلى مدن مغربية أخرى.

وظهرت ملامح الدولة . المدينة بتطوان خلال القرن السابع عشر على الشكل التالي:

أولا، حافظ آل النقيس على السلطة السياسية واعتمدوا الجهاد للدفاع عن أرضهم مبدأ راسخا.

ثانيا، تطور النمط الهندسي المعماري الأندلسي في عهد النقيس وهذا واضح في نموذج المنزل الموريسكي الواضح مثلا في دور النقيس بدرب الشرفاء الوزانيين.

ثالثا، عرفت تطوان تطورا عمرانيا هاما في عهد النقيس إذ امتد البناء خارج أسوار المدينة شرقا حيث توجد ساحة الغرسة الكبيرة وزنقة المقدم ودرب الشرفاء. وازدهرت الصناعة التقليدية بحجى الخرازين فأصبحت من أهم عناصر اقتصاد المدينة. وساهم ميناء تطوان في تطور المدينة الاقتصادي بشكل لم يعرف له مثيل. وساهم كل هذا في ترسيخ الأسس الاقتصادية للمدينة . الدولة.

رابعا، ازدهرت الثقافة بتطوان خلال هذه الحقبة الزمنية مع انتشار بعض الزوايا التي تم تأسيسها بالمدينة كالزاوية الفاسية ثم ظهور بعض العلماء أمثال سيدي علي بركة.

خامسا، أصبحت الحياة الروحية والعدلية منظمة في المساجد والزوايا بينما ظلت أسواق المدينة مركزا لأنشطتها الاقتصادية.

III. من الدولة إلى مدينة إقليمية: تطوان في عهد العلويين

تميز تاريخ تطوان في القرن الثامن عشر بتحول المدينة من مدينة . دولة إلى عاصمة إقليمية حكمها عامل يعينه السلطان العلوي مع تمتع العامل بدرجة عالية من النفوذ وفرض الحكم الذاتي. لقد كانت المنافسة شديدة على الحكم بين عائلة الريفي الحماصي وعائلة لوقش ذات الأصل الأموي الأندلسي. وكانت المنافسة على وجه التحديد بين عمر لوقش وأحمد بن علي الريفي. فبينما فرض علي ثم ابنه أحمد بن علي الريفي سلطته اعتمادا على القوة العسكرية، اعتمد عمر لوقش تأييد الأهالي له في فرض نفوذه على تطوان والمناطق المجاورة لها. إلا أن سيطرة الأول أو الثاني كان يفرضها تعيين السلطان لأحدهما وتغير موقف السلطان كلما تولى سلطان جديد الحكم. وهكذا ارتبط نفوذ العامل برضى السلطان أو سحقه عليه. إلا أن العامل حافظ على درجة عالية من السلطة بعد تعيينه.

فيما يلي بعض الملاحظات حول وضعية تطوان خلال القرن الثامن عشر:

أولا، ارتبط الحكم بتطوان بالعامل سواء كان من آل الريفي الحماصي أو من آل لوقش.

ثانيا، رغم تحول المدينة من عاصمة دولة . مدينة إلى عاصمة إقليمية، حافظت على درجة عالية من استقلالها الذاتي. لقد فرض علي ثم أحمد بن علي الريفي سيطرته على تطوان ووطنجة وامتد نفوذه إلى مناطق بعض قبائل الشمال كبني عروس وجبل علم. وظهرت معالم سلطة الريفي في القصور الفخمة التي بناها كما ظهرت معالم سلطة عمر لوقش في نقوش الأبيات الشعرية فوق السقايات بجانب أبواب المدينة العتيقة مثل سقاية باب العقلة وسقاية باب التوت.

ثالثا، تحول المجتمع التطواني جذريا خلال هذه الحقبة التاريخية إذ ظهرت فيه زوايا ومساجد وعلماء ومتصوفة بارزون أمثال ابن عجيبة وسيدي عبد السلام ابن ريسون. وازدهرت الحياة الثقافية والتعليمية والروحية في إطار بعض المؤسسات التي أنشئت خلال هذه الحقبة مثل مدرسة لوقش ومسجد لوقش. إن الحاج محمد ابن عمر لوقش هو الذي بنى هذه المؤسسة التي كان لها دور كبير في تكوين عدة أجيال من العلماء بتطوان خلال قرنين. وعرف التطور المعماري نموا كبيرا خلال هذه الحقبة الزمنية ويظهر ذلك في القصور الفخمة التي بناها الريفي وفي خصوصية الهندسة المعمارية لمدرسة لوقش التي تنفرد هندستها المعمارية المورسكية وتختلف عن الطابع الهندسي لجل المدارس التقليدية في المدن المغربية كالمدارس المرينية بسلا ومدرسة العطارين بفاس. وتحولت هذه المدرسة إلى متحف التعليم التقليدي بعد ترميم بنائته. وهكذا تطورت الهندسة المعمارية العسكرية الأندلسية بتطوان لتضم الهندسة المعمارية في بعض المساجد التي بنيت خلال هذه الحقبة التاريخية مثل صومعة جامع الباشا المثمنة.

وتطورت الفنون التقليدية خلال هذه الحقبة التاريخية وهذا واضح في المنزل التطواني الذي استعمل فيه الزليج التطواني وعدة عناصر للترزين.

ويمكن القول إن تطور المعالم التاريخية في القرن الثامن عشر مهد الطريق للازدهار المعماري الذي عرفته المآثر التاريخية بتطوان خلال القرن التاسع عشر، حيث ازدادت الصناعة التقليدية تطورا وتم استيراد مواد جديدة للبناء من أوروبا علاوة على التحف التي استعملت للترزين الواردة من بريطانيا وإسبانيا وإيطاليا وفرنسا.

IV. تطوان عاصمة متوسطة لمنطقة الحماية الإسبانية

انفردت تطوان بمكانة خاصة بصفتها عاصمة الحماية الإسبانية في شمال المغرب والصحراء أو العاصمة الخليفة وذلك من 1912 إلى 1956.

إن سلطة الحماية الإسبانية كانت مرتكزة في تطوان سياسيا وعسكريا وإداريا واقتصاديا. وكان صاحب القرار هو المقيم العام الإسباني الذي كان يحمل أعلى الرتب العسكرية في الجيش الإسباني.

ولقد اختلفت سياسة الحماية الإسبانية حسب شخصية المقيم العام إذ اعتمد بعضهم سياسة الليونة والحكم مع المواطنين واعتمد البعض الآخر سياسة القوة والجبروت مثل الجنرال بريلا (Varela).

وبجانب نظام الحماية الإسبانية كان خليفة السلطان يرأس ويعين الوزراء ويشرف على حكومة تضم وزراء يديرون الشؤون الإسلامية كوزير العدلية ووزير الأوقاف. وكان الصدر الأعظم يرأس هذه الحكومة. ومما يبرر وجود هذه الحكومة الاعتراف بسيادة المغرب في توصيات مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 فيما أن سلطان المغرب كان يعتبر حاكم دولة ذات سيادة فإن تقسيم المغرب إلى حماية فرنسية وحماية إسبانية كان يقتضي تعيين خليفة للسلطان بالشمال باعتبار أن السلطان سلطان المغرب كله رغم تقسيم البلد إلى حمايتين.

ومن هنا جاء تصنيف تطوان عاصمة للحماية الإسبانية. وبينما كان المقيم العام يدير الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية من الإقامة العامة، كان الخليفة يشرف على حكومته من القصر الخلفي المجاور.

المهم هو أن تطوان أصبحت عاصمة لمنطقة الحماية الإسبانية أو المنطقة الخليفية وهي منطقة واحدة. ولقد كان لهذا القرار انعكاسات متعددة الأبعاد.

أولا، تم بناء مدينة إسبانية بجانب مدينة تطوان الإسلامية وهي المعروفة بالإنسانشي ومعناه الامتداد باعتبارها امتدادا للمدينة الإسلامية. وكانت هذه المدينة تتوفر على جميع مقاييس العاصمة بإدارتها العصرية وثكناتها العسكرية ووزاراتها المتعددة ومنشأتها الاقتصادية

كالمعامل، فازدهرت طبقة إسبانية سياسية وإدارية واقتصادية وعسكرية وثقافية من جهة، وازدهرت طبقة نخبة مغربية وطنية بجانبها.

ازدهرت مدينة تطوان عندما تحولت إلى عاصمة الحماية الإسبانية بشمال المغرب والصحراء، ويتضح هذا التحول الجذري على عدة مستويات كالمستوى السياسي والعسكري والتطور العمراني والمعماري والتطور الاقتصادي والازدهار الثقافي والفني، فكانت السلطات العسكرية الإسبانية بقيادة المقيم العام تدير الإدارة العمومية، وكانت الإقامة العامة مركزا ورمزا للسلطة الإسبانية، كما ترأس خليفة السلطان حكومته التي كانت مكلفة بتدبير الشؤون الإسلامية كالعدالة والأحباس. وهكذا احتفظ المغرب بسيادته الرمزية رغم امتياز السلطات الإسبانية بهيمنتها على القطاعات الحساسة كالإقتصاد والفلاحة والتعليم. إن وضعية المقيم العام الإسباني كانت مماثلة لوضعية المقيم العام في منطقة الحماية الفرنسية في الجنوب، بينما اقترنت وضعية الخليفة في الشمال بوضعية السلطان في المنطقة السلطانية بالجنوب، وعاشت منطقة الشمال أزمة سياسية وقانونية عندما نفي الملك محمد الخامس إلى مدغشقر سنة 1953 فترك ذلك الحدث فراغا سياسيا وشرعيا فلم يعد الخليفة يمثل سلطانا تم نفيه. ومع ذلك ظل الخليفة مولاي الحسن بن المهدي يرأس حكومته واحتفظ بولائه لمحمد الخامس واعتبر نفي الملك قرارا استعماريا تعسفيا وضم صوته إلى موقف الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة والانتفاضة الشعبية في الشمال والجنوب إلى أن عاد السلطان محمد الخامس إلى وطنه واسترجع عرشه. ويمكن القول إن تطوان احتفظت بوضعيتها عاصمة للمنطقة الخليفية بفضل موقف الخليفة الوطني. وسبق للخليفة مولاي الحسن بن المهدي أن عبر عن موقفه تجاه شرعية السلطان سنة 1947 عندما استقبل محمد الخامس في حدود عرباوة وصاحبه في السيارة الرسمية إلى طنجة في 9 أبريل 1947 حيث ألقى الملك محمد الخامس خطابه الوطني الشهير.

وعرفت تطوان في عهد الحماية ازدهارا عمرانيا ومعماريا كبيرا إذ تم بناء مدينة إسبانية بجانب مدينة تطوان العتيقة.

إن الغرض من مناقشة موضوع تطوان في عهد الحماية ينحصر في التركيز على وضعيتها القانونية والسياسية عاصمة متوسطة. ولقد عالجت عدة دراسات تاريخ هذه المدينة خلال هذه الحقبة التاريخية أذكر منها "تاريخ تطوان" لمحمد داود (محمد داود، تاريخ تطوان، قرطبة، المسارة، 2008).

الخاتمة

ليس الهدف من هذا العرض تقديم ملخص لتاريخ تطوان فلقد أنجز هذا في دراسات أخرى. إن الهدف هو مناقشة إشكالية تطوان بصفقتها عاصمة تاريخية من خلال تحديد مكونات هذا المفهوم كما انطبق على هذه المدينة عبر تاريخها. ولم يكن هدفنا هو إثبات قيام تطوان بدور العاصمة كما قامت بها مدن مغربية أخرى انطلاقا من مفهوم مسبق لمصطلح العاصمة، بل يتجلى هدفنا في مناقشة خصوصية هذه "العاصمة" عبر تاريخها وتحديد خصوصيتها ثم اقتراح المفهوم نظريا للدولة . المدينة الذي ينطبق على تاريخ هذه المدينة دون غيرها. ونكون بذلك قد ساهمنا في توضيح المفهوم النظري للدولة بمكوناته المتعددة وتطوره عبر التاريخ من جهة وتطبيق مفهوم الدولة . المدينة على مدينة تاريخية ذات خصوصيات متميزة من جهة أخرى.

والغرض من هذا النقاش هو تقديم نظرة جديدة مخالفة لمفهوم الدولة المغربية انطلاقا من المنظور المخزني الرسمي لتحليل تاريخ المغرب، لأن هذا التصور كما هو شائع في عدد من الدراسات التاريخية بما فيها الدراسات الجماعية لا ينطبق على واقع التاريخ المغربي، لأنه ينطلق من الحاضر السياسي بهدف اعتماد التاريخ بصفته أحد مكونات الدولة المغربية

الحديثة، بينما يجب دراسة التاريخ المغربي (بما فيه تاريخ المدن المغربية وباديته) في إطاره التاريخي قبل ربطه بالمخزن في القرن العشرين أو الحادي والعشرين. فلم توجد دولة مغربية مثلاً في القرن السادس عشر الميلادي، نظراً لوجود عدة دويلات كتطوان في ظل حكم المنظري وشفشاون في ظل حكم علي بن راشد ومملكة فاس ومملكة مراكش، بينما خضعت البوادي في شمال المغرب وجنوبه لسيطرة القبائل المحلية، وفرضت البرتغال حكمها على المدن الساحلية كسبتة وطنجة وأصيلا الجديدة.

كما تتجلى أهمية مناقشة مفهوم الدولة . المدينة في التعمق في دراسة تاريخ الأقاليم والمدن قبل الخروج بنظرة شمولية لتاريخ المغرب.

نظراً لتنوع هذا التاريخ وتمييزه محلياً، في إطار وحدة ثقافية وتاريخية عبر الرقعة الجغرافية لما تطور في مرحلة لاحقة إلى كيان سياسي واجتماعي ينطبق عليه مفهوم الدولة. وهذا المنهج يمكننا دون غيره من فهم تاريخ تطوان عبر القرون الخمس الأخيرة والتعمق في تحليله وفهمه، لأن تطوان وجل المدن المغربية وبواديها، لم تشكل جزءاً من الدولة المغربية بمفهومها الحالي. ويجب مجانبة الخلط بين تاريخ بعض المدن كفاس، وتاريخ الدولة المغربية التي كانت فاس عاصمة لها في بعض مراحل تاريخها دون الأخرى. كما أن التيار المغربي التاريخي الذي يرفض الكتابة التاريخية الفرنسية الاستعمارية لا يجب أن يتطرف في رفضه ليرفض التأريخ الفرنسي للمغرب في عهد الحماية، لأن هذا الأخير يضم سلبيات وإيجابيات، ولأن تاريخ المغرب في عهد الحماية كان يضم بعض الإيجابيات رغم سلبياته، خصوصاً في مجال العمران والهندسة المعمارية للمدن مثلاً.

يجب إذن أن نغير موقفنا من تاريخ المدن / العواصم ومن التاريخ المحلي لنشرع في طرح إشكالية التاريخ المغربي انطلاقاً من منظور جديد، فالنقاش في هذا المجال أكثر تطوراً بين المتخصصين في تاريخ الأندلس.